جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

الأدب الشعبي
وفنون المحاكاة في المجتمع
" النوبي خاصة "

الدكتورة

إيمان محمد إلياس

مدرس الأدب والنقد الحديث ـ بقسم اللغة العربية ـ كلية الآداب بقنا
جامعة جنوب الوادي ـ جمهورية مصر العربية

العدد الرابع والعشرون
للعام ١٤٤٢هـ / ٢٠٢٠م
الجزء الثالث عشر

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢٠م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

الأدب الشعبي وفنون المحاكاة في المجتمع " النوبي خاصة "

إيمان محمد إلياس

مدرس الأدب والنقد الحديث ـ بقسم اللغة العربية ـ كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي ـ جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني: eman.taha@art.svu.edu.eg

الملخص

المكان عنصر رئيس فاعل في تكوين طباع البشر وعوالمهم النفسية، وقلما استطاع مكان أن يستمر حيا مُجسَداً حاضرا في عين المبدع وقلبه وعلى قلمه وواقعه مثلما كانت النوبة ، وقد حولتها أحداث التهجير إلى رمز للوجود وللإنسان النوبي ، وصار ترابها ونيلها وجبالها وحروفها أساطير تَلقف كل مُحدَث في حياة النوبي وتسيل على مداد قلمه. وانعكست على العناصر الثقافية والذهنية والإبداع وسواء كان محور العمل القصصي النوبة قبل التهجير أو النوبيون بعد التهجير، كانت النوبة حاضرة بعاداتها وتقاليدها في الميلاد والختان والزواج والسفر وحفلات جني الثمار والرقص والموت والدفن ، ونهر النيل الذي كان يُحاط بهالة من الغموض الأسطوري .وقد سطرت أقلام أبناءالنوبة تلك المعاناة في أعمال قصصية وروائية امتزج فيها الحاضر الجريح بالماضي الأليم بالموروث الشعبي التراثي القابع في تاريخهم وذاكرتهم وتفاصيل حياتهم .

وقد جاء البحث في :-

١-المقدمة :-المكان يمتد بين الماضي و المستقبل . والنوبة و طن و مكـــان و بوابة مكنت الأدباء من النفاذ إلى عالم الإبداع و عكســـت بعـــدهم الـــذاتي و النفسي الذي صاحب مراحل تهجيرهم

٢-أشهر كتاب النوبة :- محمود خليل قاسم -إبراهيم فهمـــي -حجـــاج أدول- إدريس علي.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

٣-المرأة النوبية :- مظهر الجمال الوحيد في النوبة ، ومصدر القوة الشعبية التراثية و الواقعية .

٤-البناء الفني للقصة النوبية:- توحد الحاضر مع الماضي و توحد ت كل المدن النوبية و القرى -نوبية الأسماء -و الزمان ملون بطبيعة الأحداث التي وقعت زمان اختفاء المحتمع التقليدي النوبي

٥-الحكاية العجائبية -الموال الشعبي .

٦-الصراع و مفرداته في القصة النوبية :-الصراع-بناء الشخصيات-الحدث.

٧-الفولكلور و المجتمع و الثقافة:-تعريف الفولكلور -المأثورات الشعبية من قمة الكيان الاجتماعي إلى سفحه ، و من القاع إلى القمة .

٨-النوبة أسطورة من الأساطير :- جغرافية النوبة و قبائلها.

٩-كانت نوبة :- التاريخ الجمعي الشعبي للنوبة – وما تركه من تراث عربي .

١٠-الأغنية الشعبية :-وهي تطويع الشعب لتعبير وجدانه الجمعي الذي يتضمن حاجته في تعددها.

١١-الخاتمة – المصادر و المراجع

الكلمات المفتاحية : الأدب الشعبي ، فنون المحاكاة ، الأدب النوبي ، البيئة النوبية .

Folk literature and simulation arts in the 'Nubian community in particular'

Eman Muhammad Elyas
Teacher of Literature and Modern Criticism - Department of Arabic Language - College of Arts in Qena - South Valley University - Arab Republic of Egypt
Email: eman.taha@art.svu.edu.eg

Abstract

The place is a major and effective element in the formation of the character of people and their psychological worlds, and hardly a place has been able to survive, embodied and present in the eye of the Creator, his heart, his pen, and his reality just as the Nuba was, and the events of the displacement have transformed it into a symbol of existence and of the Nubian man, and its soil, its Nile, its mountains and its letters have become myths that are attached to each one The life of the Nubian and flowing to the outline of his pen. It reflected on the cultural, intellectual, and creativity elements, and whether the focus of the fictional work was the Nuba before the displacement

Or the Nubians after the displacement, the Nubia was present with its customs and traditions in birth, circumcision, marriage, travel, fruit-reaping ceremonies, dancing, death and burial, and the Nile River, which was surrounded by an aura of mythical mystery. The pens of the Nubians wrote that suffering in narrative and narrative works in which the wounded present was mixed with the painful past and the folk heritage. Legacy in their history, memory and details of their lives.

The research came in: -

1- Introduction: The place extends between the past and the future. And Nubia, a ton, a place, and a gate that enabled writers to access the world of creativity and reflected their self and psychological dimension that accompanied the stages of their displacement

2 - The most famous book of Nubia: - Mahmoud Khalil Qasim - Ibrahim Fahmy - Hajjaj Adoul - Idris Ali.

3- The Nubian Woman: - The only appearance of beauty in Nubia, and the source of traditional and realistic popular power.

4- The artistic structure of the Nubian story: - The present unites with the past and all Nubian cities and villages - Nubian names - and the time is colored by the nature of the events that occurred at the time of the disappearance of the traditional Nubian community

5 - The Miraculous Tale - Popular Money.

6- Conflict and its vocabulary in the Nubian story: - the conflict

- building characters - the event.

7 - Folklore, Society and Culture: - Definition of folklore - Popular traditions from the top of the social entity to its foot, and from the bottom to the top.

8- Nubia is one of the myths: - The geography of Nubia and its tribes.

9 - Was Nuba: - The collective history of Nubia - and what he left of the Arab heritage.

10- The folk song: It is the people's adaptation to the expression of their collective conscience, which includes their need in its multiplicity.

11- Conclusion - Sources and references

Keywords folk literature, simulation arts, Nubian literature, Nubian environment.

أنكون.....

يا ترى أم لا نكون

أمن الحكمة أن نحيا الحياة

كيفما كانت ونرضى حظنا..؟

أم نخوض البحر في هول الصراع ؟

أم ترى الحكمة في أن ننتحر..؟

يادجى... ياصمت

يا..يا...جنون

(نجيب سرور)

"لزوم ما يلزم"

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يحمل الفن والأدب فكر المجتمع وقيمه وتناقضات واقعه، ويضبط على أوتاره عنصر الزمان والمكان اللذين يمتدان عبر الماضي والمستقبل، فيرتسم على صفحتهم وتفاصيلهم الواقع الحياتي للإنسان مُحملا بالقوانين الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية الصارمة القاهرة، التي تكون مصدرا رئيسيا للمبدع كي يجسد واقعا فنيا قادرا على كسر كل الحواجز للوصول بالآه القاتلة المريرة إلى كل كائن من كان، وقد قالها فرناردو بيسو "أريد دائما أن أكون ذاك الذي أتعاطف معه، سأحاول دائما، عاجلا أم آجلا إلى ذاك الذي أتعاطف معه، حجرا كان، أم حنينا زهرة أم فكرة مجردة، حشدا بشريا أم طريقة للوصول لله[١]" فرؤية المبدع وتصوراته الخاصة ماهى إلا صورة ذهنية أو مخزون سيكولوجي أو وعي اجتماعي ، بما اصطدم داخل النفس وبما اخترق المجتمع من صراع أو تمازج أو تضارب بين تلك القوى، لينتج أيديولوجية خاصة وملابسات سوسيولوجية تتفاعل مع عناصر "المكان الذي ارتحل منه وإليه- التفاعل والنفوذ الذي خضعت له ائتلافا أو اختلافا -الميزان الديني- اللغة وتحولات اللهجة[٢]" فتتشكل هُوية عرقية ثقافية أدبية، وكلما تم التنكر لعنصر من تلك العناصر تنغلق تلك الهُوية على نفسها، بل قد تتطور وتتحول إلى كائن في غاية الوحشية في نظرته الاجتماعية للآخر، فيعلو صوتها كي يرتطم بالعالم "ذئب الجنوب الكاسر-

(١) كتاب العربي "تجارب في الإبداع العربي "مقال "تجربة في المكان "حسان بورقية. مطبعة الكويت ٢..٩، ص٢٩..

(٢) عالم الفكر. المجلد السابع والعشرون. العدد الثالث يناير١٩٩٩.الكويت.

واحد ضد الجميع- المواجهة الأخيرة –المزيفون –انفجار جمجمة " تلك بعض عناوين أعمال لكتاب القصة النوبية الذين تم تهجيرهم في ٢٤٤يوما من أكتوبر ١٩٦٣إلى ٢٢يونيو١٩٦٤، وقد كان لتلك المأساة جذور بدأت ببناء خزان أسوان الذي تم بناءه في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني عام ١٩٠٢، فتوالت أحداث الغرق والتهجير والتشتت، ووقع مالم يكن في الحسبان، وهو البعد تماما عن الأرض وغرق معظم قرى النوبة فتركت الهجرة التي تبعها موت الأطفال وكبار السن جرح لا يندمل في نفوس النوبيون، ووقع من بقى من النوبيين فريسة للفاجعة الكبرى، وأصبحت أرواحهم متعلقة بالنوبة القديمة، وسيطر على أنفسهم الشعور بالحسرة والقهر والخيبة.

لقد كانت "النوبة " الوطن والمكان ، هى البوابة الأقدر على تمكين أدباء النوبة من النفاذ إلى عالم الإبداع ، وعكست بعدهم الذاتي /النفسي الذي صاحب مراحل تهجيرهم، ومحطات حياتهم، بل أصبحت "النوبة / المكان" في حد ذاته حدث أو خَبر شديد الإثارة، يتقدم هو والأديب متشابكين متلازمين فتتدفق تفاصيله على لسان الأديب وكأن الاثنين واحد لا يتجزأ يقول إبراهيم فهمي "يا يوم مولدي لو يجيبني أحد في الناس عن فزورة، حزورة، أسأله عن بلد بلد تلبس "شبارة "سوداء، لها قلبها الأبيض، وطرحة العرس خضراء، يقول لي: نوبة..نوبة..نوبة في الفجر نوبة في المساء.. نوبة في النهار نوبة في الليل"[١] وظلت النوبة آهة لا شفاء منها إلا برسم صورتها في قالب الحكي النابض بحبها حتى صارت واقعا حياتيا وليست ماض مندثر.

---

(١) "رمش الصبايا " إبراهيم فهمي.الهيئة المصرية للكتاب ١٩٩٤. ص ١٢

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

التمهيد:-

كانت بلاد النوبة القديمة "النوبة السفلى" التابعة لمصر، وهى الشمالية موقعها بين أسوان وشلال وادي حلفا، وتسمى بلاد الكنوز نسبة لقبيلة بني الكنز سكان هذه المنطقة يتحدثون العربية إلى جانب اللغة النوبية التي تنطق ولا تكتب.

قامت فيها ممالك عظيمة على مر التاريخ منها مملكة "الكوشة "عام ٧٢.قبل الميلاد، وبعد معارك مع المصريين الشماليين، تراجع النوبيون إلى الجنوب وجعلوا مدينة مروى عاصمة لمملكتهم عام٣٠٠ قبل الميلاد، ثم طغت عليها المسيحية، وبعد ظهور الإسلام دخلت في نزاعات كثيرة مع حكام مصر، فتأرجحت ما بين ولاية تابعة لحاكم مصر وبين مملكة متعادية معها حسب قوة الحاكم المصري، ثم دخلت الإسلام عن بكرة أبيها في عصر السلطان قلاوون الذي أعاد الملك النوبي "كرنيس "إلى عرشه بعد أن اعتنق الإسلام هو وكل رعيته.

عزمت مصر بعد ثورة ٢٣يوليه ١٩٥٢على بناء بحيرة ناصر وراء السد في مناطق النوبة فتم تهجير النوبيين المصريين بعيدا عن شريان النيل، وتوزعوا في مناطق مختلفة في جنوب مصر وشمالها. وسقطت النوبة من خريطة الوطن، وتحركت باخرة التهجير تقتلع في خطواتها جذور حية لبشر ووطن، لتغرقها في خلاء مصر، فشرب النوبيون مرارة التهجير وطعموا خراب بيوتهم وأنفسهم، وجرى في دماء أبنائها هَم الغربة، وكرب ضياع الهوية، وشوق مؤلم لأديم الأرض ومائها. فانطلقت عواطفهم مع فواجعهم تتدفق في أنهار الإبداع، دافئة متميزة لا يقف في طريقها خزان

قوانين أو سد سلطة، مهما أحاطهم التسلط والتهجير، فكأنهم أرادوا أن يقولوا (كنا وجعلتمونا لا نكون الآن نحن الباقون.)

١- أشهر كتاب النوبة :-

محمود خليل قاسم: ساكن كل بيت في النوبة القديمة قبل الفيضان، صاحب مجموعة" الخالة عيشة" و"الشمندورة " كتبها عام ١٩٦٤، عبر عن النوبة والنوبيين وكأنه عاش حيوات الجميع، وكانت تلك الرواية أول رواية نوبية بالمفهوم الحديث.

إبراهيم فهمي :- (من حيث ينتهي الشعر أبدأ، ومن حيث تبدأ الحكايات انتهي)"١"

شاعر القصة النوبية المصرية، يمامة ذبحتها باخرة التهجير، فظلت تغني وتكتب بدمها تقاسيم اللوعة والألم، وكلما كتبت أوغلت وتماسكت صامدة شامخة، تردد ترانيم العشق لكشتمنه القديمة التي تبدلت بكشتمنه جديدة. وهو أديب نوبي ولد عام ١٩٥٢ في قرية كشتمنة ومات سنة ١٩٩٤ أبدع مجموعات القمر بوبا – بحر النيل – العشق أوله القرى – رمش الصبايا.

حجاج أدول : -

النيل وقت الأصيل، السفينة قرب وصولها، النوبة وقت حصادها، الجنوب ساعات بزوغ شمسه.مزج قلمه بواقع النوبة بأساطير وحكايا تعيش الحاضر، وتصنع تاريخ أمة (ليالي المسك العتيقة –بكات الدم –غزلية القمر –الكشر).وهو أديب نوبي من مواليد الإسكندرية عام ١٩٤٤ تنتمي عائلته

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

لقرية توماس وعافية، حصل علي جائزة الدولة التشجيعية في القصة القصيرة عام ١٩٩.

إدريس علي :- عاصفة نواتها النوبة، هبت على القاهرة فزعزعت البيروقراطية، والانتهازية، والطبقية، والسلطوية أيا كانت، اشتعلت في داخله حرب أهلية فسلَّحته بالسخط والتمرد والتحدي حتى صنع لنفسه جبهة يحارب من فوق ربوتها الجميع، وقد صعقه تيار الهجرة، وترك له عِلَّة الصداع والوجع الذي توطنه، فعشعشت فيه صقور السخط والتمرد والرفض والتصدي.

٢- المرأة النوبية :-

امرأة لها خصوصيتها، فهى مظهر الجمال الوحيد في حياة النوبي، ومصدر القوة الشعبية التراثية والواقعية، فقد اجتمعت عليها الشمس المنعكسة على الجبال المؤججة بالثعابين والطريشة والعقارب والحيوانات المتوحشة، والنيل المتعالي بخيراته وأسماكه ومفاجآته وسحره القديم، والوجه الأسمر والأسنان البيضاء، والرطانة المنفردة تسكن المرأة النوبية" "روح طفل تتحدث بلغة حكيمة، تتقن أبجديات الحب..وفلسفة العشاق ؛تتمتع بروح الشباب وحكمة الفلاسفة ؛وكأن الطفل والحكيم والعاشق والشاب والفيلسوف جميعهم اجتمعوا في شخصها [١]"

٣-البناء الفني للقصة النوبية :-

في ظل الخراب الذي عم بلاد النوبة والتهجير الذي طال كل شئ حتى التراب الذهب –كما قال جلال الدين الرومي "سافر من نفسك إلى نفسك أيها

(١) محمد عبد السيد https:llwww.nawaret.com

السيد، فمن سفرك صار التراب منجما للذهب " فتراب النوبة مسكون بالتاريخ والآثار والعرق واللغة والأحلام والرغبات، مسكون بالمقابر التي ضمت رفات العصور والأجداد الأبطال، فأصبح المبدع يشفق على كل شئ فيها عظيما كان أو تافها، يريد أن يقيم في ذاكرة الماضي، ويغلق عليه أبوابه، فيتوحد الحاضر مع الماضي، ويصبح الكاتب مسكونا بوجع الفقد والبعاد وضياع الهُوية، ولذلك وجدنا معظم الأعمال القصصية والروائية تدور في قرى النوبة :-الشمندورة (قته)،العشق أوله القرى (كشتمنه)، الكشر (توماس)،دنقلة (قرشة).....وإذا لم يذكر اسم المكان في القصة يكون المقصد عموم قرى النوبة -كما في رواية "اللعب فوق جبال النوبة "

أما أسماء الشخصيات فهى نوبية الأصل والتداول "داريا -أشا - أوبورتي - هجلة ميرغني-راجية هميد" ويتسلل على ألسنة الشخصيات بعض الكلمات النوبية بلهجات متباينة في السرد أو الحوار"هامبول النيل- إبيو..إبيو- تود وردي باسطيبو-شباب نوبة باسطيبو(غزلية القمر)"

وليس [الزمان] القصصي ببعيد عن عالم النوبة القديم فهو"زمان ذاتي "ملون بطبيعة الأحداث التي وقعت زمان اختفاء المجتمع التقليدي المحض، الذي كان سائدا في النوبة، زمان الحنين إلى الماضي وصفاءه ونقاءه، فيقارن بين مجتمع الأمس البعيد، والأمس غير البعيد، ومجتمع اليوم، ويحلل ما ساد مجتمعه القديم من عادات وتقاليد وأعراف الحسنة منها والسيئة، وربما يندفع نحو قضايا وجودية ومصيرية غيبتها أو طمستها أحداث التهجير وتوابعه "تطاردني الذكريات.. تتراقص.. تغني.. تستندرجني تزين لي الأمور وجوه.. صور.. أشياء.. لكنني في كل هذه الصور أفتقد شيئا غير محدد لا أدري ما يكون :بحثت عنه دائما بغير طائل تخيلت

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الحصول عــليه ممكنا، بل ومن المحتمل أنه أدنى مما أتصور.على أية حال فات أوان التراجع ..وأثناء تصفحي لكتاب نفيس، عثرت على شهادة مــيلاد قديمة، باهتة ليست بالطبع لغريب أو صديق أو عزيز، فأسماؤهم محفــورة في ذاكرتي، من أساء منهم أو أحسن إلــي فلمــن تكــون إذن؟"[١] وتظــل التساؤلات والتخمينات والأحداث تتوارد في القصة حتى تنبئنا النهاية بــأن الشهادة هى خلاصة تاريخه ووجوده.

وقد وازنت إبداعاتهم القصصية بين الحكي العفــوي المنطلــق بكــل أشكاله ومتطلباته وقوالبه فهو"الملفوظ الســردي، والخطــاب الشــفوي أو المكتوب الذي يروي حدثا...متمثل في أن أحدهم يروي شيئا أي فعل السرد في ذاته، وهكذا تمتزج الحكاية عموما بالسرد وتتماهى معه"[٢]،والبناء الفني المحكم المنضبط.

والمقصد الواضــح من السرد إما النجوى أو الحوار مع الآخرين، أو تأريخ وتوثيق لماض أسقطه القهر من حساباته، ولم يسقطه من واقــع النــوبي وقلبه، لذلك نجد القصة تأتي أحيانا مركبة من عدد من القصص أو الحكايات المرقمة وكأن القاص يتقمص دور راوي يحكي ويفصــل ثــم يعــود حتــى الخاتمة، وهذا ما وجدناه في قصة "زواج هجلة ميرغني " **المكونة من** :-

(١- إحاطة

(٢- هجلة ميرغني

(٣- نذالة ونشوذحسن ميرغني

---

(١) مجلة "علامات في النقد"ص٣٢٦

(٢) مجموعة "واحد ضد الجميع "قصة "المنسحب" ص٨٥.

(٤-السلطاناب، وبنات سارة.....

(٥-.....١٦-الخاتمة).

هناك قصص بُنى مُتكئًا على أنقاض [الحكاية العجيبة]، وأول ما يميز تلك الحكاية أنها تواجهنا "بما هو خارق، وليس في الحسبان، وبعيد عن منطق الواقع، فالعجيب يهيمن على عوالمنا بصورة شاملة، وتتقاسم الشخصيات هذه الأهمية في تحديد الحكاية مع عنصر العجائبية ويظل العجيب في الحكاية الشعبية تعبيرا عن وضع اجتماعي وحالة معيشية، وهو نابع من خيال رغبي، قِوامه التعويض عن حرمان، ولاشك أن فيه شفاء من قهر وانعتاق من كبت، فهو يريح النفس، ويعيد إليها توازنها.."[١] ويكاد يكون إبراهيم فهمي النموذج الأمثل لتجسيد هذا الاتكاء على الحكاية الشعبية، فقد جاءت أعماله القصصية بمنهج متميز وله خصوصية في البناء واللغة ورسم الشخصيات، وآثر أن يصبغ كل عنصر من عناصر قصصه بلغة شاعرية بَوَّاحة بحرقة لانهاية لها، فعِشق النوبة تسبيح يرتله كل ما هو نوبي يقول إبراهيم فهمي " كيف يا ناس يكسر قلب العشاق عاشق "كيف؟ ربطت يا عثمان شبارات البنات بجريد النخل، ربطت أقدام البنات بمراقص من رمل وضفاف... دائما نسافر، من الضفاف الحلوة حتى البلاد الصحاري نسافر... ونرجع موتى نرجع أحياء نرجع بالعشق نرجع بالموت نرجع لكننا نرجع"[٢]

---

(١) مجلة المأثورات الشعبية س١٩،ع٧١،""بحث"العجائبية في الحكاية الشعبية"أحمد زياد محبك ص٦٩،٦٨.

(٢) العشق أوله القرى.إبراهيم فهمي ص٨٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ظلت أعمال إبراهيم فهمي تكسر المألوف، وتتجاوز الأنماط كي تحقق ما لا يتوقعه متلق أو ناقد، وتبتكر ما يحقق الدهشة والانبهار، فينطلق مارد القهر والقمع والحرمان، عله يحقق الرغبات المستحيلة، وينجو من كابوس الواقع الجاسم على وجوده يقول "يقولون لي –وهم يعرفون –أرخ لنا الليلة يا جبرتي الزمان، تركت النوبة أهلك، وجعلتنا غاية الكلام".(١)

أما[الموال الشعبي] فقد استند إليه بعض الأدباء لحمل أوجاعهم وهو" لون من ألوان الغناء الشعبي، يكتب بالزجل ويعتمد في نظمه على ألوان البديع والبيان كالاستعارة والجناس والطباق والتورية"(٢) فيسرد الكاتب أحداث عمله، ثم يوظف الغناء القصصي لتأكيد قيمة أخلاقية أو عرض لموعظة أو ثقافة أو رأي أو حالة شعورية، يقول حجاج أدول في موقف يمتزج فيه حلم العجوز بالعودة مع حلم الشابات بالحب والسعادة:

بَحر الدميرة عَبَ ونَزَل

مرة يسقي الفول والنخل

يا للي أنا بيك عقلي انشغل

بعت روحي عشان ليك أصل

وانت أبعد لي من زحل ياقمربويا(٣)

---

(١) رمش الصبايا ص٤٩

(٢) مجلة "الفنون الشعبية العددان ٩٨/٩٩سبتمبر٢٠١٤مقال "الموال بين الشكل الأدبي والأداء الموسيقي محمد شبانه صـ١٣٦

(٣) غزلية القمر.حجاج أدول ص٩/١٠٣

٤-الصراع ومفرداته في القصة النوبية :-

يمثل الصراع العمود الفقري للحدث في القصة بصفة عامة والنوبية، فهو الذي يساعد على دراميته، ويضفي عليها حرارة –وحيوية، ويبلور شخصية البطل، مما يجعل العمل القصصي ينتقل من نقطة مثيرة إلى أخرى أكثر إثارة وعمقا، تحركه يد ماهرة لديها مخزون ثقافي وأسطوري وعركت الحياة بمرها، وسمعت عن حلوها، وهو لم يكن في قصصهم بين طرفين متكافئين، وإنما كان صراع وجود، اعتبره أهل النوبة شر واعتبره المسئولون عن مشاريع السد العالي خير و"الخير والشر مفهومان أخلاقيان لا يعترف بهما صراع الوجود، والنافع والضار مصطلحان نسبيان بل هما تعبيران ناقصان، ولابد عند استعمالهما في مجال التاريخ أن نقول :– نافع لِمَن أولِمَ. بل إن الموت نفسه –وهو في نظرنا أسوأ ما يمكن أن يصيب الإنسان –هو سبب الحياة "(١)

وقد احتدم الصراع بين المجتمع النوبي بتقاليده وطقوسه وأحزانه متمثلا في البطل الذي هو الكاتب وبين الواقع وأهل الشمال الذين صنعوا هذا المأزق الوجودي، فخلق الكاتب من ماضيه وذاته الجماعية إطارا ثابتا يحرك أحداث العمل ويطورها، فنجد حجاج أدول في قصة "زينب أوبورتي " و"الرحيل إلى ناس النهر" تُمثل الإطار الاجتماعي في الأسطورة التي تحركت أحداثها في جو يتخطى حدود الواقع إلى السحر "تعجبنا عندما شاهدنا على الربوة البعيدة عمالاً طوالاً عراضاً عراة.وفى عز البرد الشاذ يشيدون بيتا غريب الطراز فى سرعة عجيبة.وأين؟ على سطح ربوة صعبة

(١) الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها. د/حسين مؤنس. عالم المعرفة.ط٢صـ١٠٤

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الارتقاء.. لم نتصور أن هذا البيت خاص بأوبورتي.هبطت إلينا في اليوم التالي وهى على ظهر بغل في سمنة بقرة وعلو أقل قليلا من الحصان"[١]

وقد اتسع نطاق الحدث عند " إدريس علي" وخرج في معظم أعماله عن الحدود الإقليمية النوية، فزخرت قصصه بأحداث التصادم اليومي بين الإنسان البسيط الذي يتسربل بفقره وستر الحائط، وما يترتب عن ذلك من تعدٍ على إنسانيته بأسلحة الظلم والقهر والإذلال، لذلك يتتابع الحدث في تسلسل منطقي لا تحيد عنه خُطا القارئ ومشاعره" حين دارت الأرض وجاءت البقعة التي يعيش فوقها في مواجهة الشمس مثل كل يوم، كان قد تمزق وأصبح عاجزا عن اتخاذ القرار الحاسم :هذه المرأة والغلاء وأولائك القوم الذين لا يخجلون، هبط إلى الشارع احتار جاء السائق صرفه، أسرع لغرفته، خلع ملابسه، كاد أن يتخذ القرار عندما صرخت المرأة ففزع الأولاد سألوها :-مالك يا ماما. اسألوه.. ارتدى ملابسه. أسرع بالنزول بالهرب.. هو في حاجة لمن ينقذه منها ومنهم، طلاق واستقاله"[٢].

يعتبر بناء الشخصية القصصية من أهم أركان بنائها، فالمبدع ينسج خيوطها من داخل القصة، فتتماهى مع أحداثها ومواقفها وزمانها ومكانها، ومع الظرفالمجتمعي الذي ينمو فيه العمل. والأشخاص هم"مدار المعاني الإنسانية،ومحورالآراء والأفكار العامة، ولهذه المعانيوالأفكارالمكانة الأولى في القصة... وهى ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما"[٣]

---

(١) "قصة "زينب أوبورتي " مجموعة "ليالي المسك العتيقة " -حجاج أدول.سلسلة أصيل ص١..

(٣) ا"لمزيفون "من مجموعة "واحد ضدالجميع "إدريس على. الهيئة المصرية العامة للكتاب ص١١.

ولكي تؤدي دورها لابد من الوسائل الفنية التي تخلقها وتهبها الحياة، ويُعد الفعل والحركة من أهم الوسائل في تقديم الشخصية، وكشف أبعادها الفكرية والنفسية والاجتماعية من خلال حوارها مع الآخر "عروستي تنتظر بشوق السنين. والجنازة تقطع الطريق إلى سعادتي. والسائق لايبالي..يدخن سيجارة محشوة بالحشيش.. ويدندن بمقاطع من أغنية تخدش الحياء ويسرع.. متخطيا التقاطعات بلا حذر أو خشية، مجنون هذا السائق.."[١]

وقد اختار "**إدريس** علي" شخصيات أعماله حسب رؤيته الفنية وأيديولوجيته السياسية، فأسقط أفكاره من خلالها متكئا على ضمير الغائب في بعض الأعمال، ليخرج نفسه من آراء وأفعال الشخصية ويربطها بالحدث، فتنطلق متوجهة لهدفها المتمثل في إدانة الواقع والتصدي لرؤس الفساد فيه يقول "حدق بدقة زناتي.. أمامك أربع ورقات ليست غريبة عليك، والآن بانت الرؤية، يابنت الأبالسة، عاملة الآلة الكاتبة وقعتك قار ياتعيس أتشكوا الجنرال.. المؤسسة، دقق جيدا.. إنها نفس الورقات التي وضعتها بيدك داخل مظروف مغلق وصدرتها رأسا لرئيس البلاد.. يا غبي لقد غاب عنك ماضي الرجل وخريجوا دفعته الذين منهم الجنرال والوزير.. المحافظ ونسيت ابن عمه المتربع فوق رأس أهم وأخطر الأجهزة الرقابية "[٢]

وشخصية مشحونة بالثورة والرغبة العارمة في المشاكسة والتصدي كشخصية "إدريس علي" من الطبيعي أن تسيطر عليها الأنا، وتترصد للآخر العدو الغازي المتسلط بذاتها بلا مواربه وبضمير "أنا" أقصر الطرق للآخر، والذي يبدأ من الأب الذي تسبب في مأساة وجوده، والتي يعتبرها فضيلة لها

(١) هل أنا السبب "مجموعة "واحد ضد الجميع " الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٢٨،٢٥.
(٢) نفسه ٢٥، ٢٨

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثمن باهظ وهو الطاعة، تلك الطاعة التي يمقتها الابن يقول" لقد أفسد حياتي وما كل من مطاردتي.. خلفتك.. ربيتك.. علمتك، والمقابل طاعة بلا حدود.. رق. فهل أدفع ثمن إنجابه لي ؟ وأنا لم أطلب منه ذلك.." والمرأة (الأم) أيضا سيف مسلط دون طائل "وجه نحس أضيف إلى الوجوه الأخرى، فقد كان يوم ولادته حالك السواد، متعدد الكوارث، اختلط ليله بنهاره، واقتلعت العواطف كل قائم على الأرض"(١)

ولم يختلف يوم مولده عن مسيرة حياته، فخلق الكاتب خطين متوازيين بصوتين مختلفين لكنهما متفقين لشخص واحد تمزقه أزمات شتى، ويتجنى عليه من هم أقوى منه، فكما أرغم على النزول للحياة وألصقت بنزوله مصائب كونية لا يد له فيها، أرغم هو نفسه في الخط الموازي على الخروج من مأمنه بدون سبب "انخلع الباب وتدافعوا إلى الداخل يشيعون في الغرفة فوضى وخرابا.. كان استسلامي لهم يعني هلاكي المبكر رغم وعودهم بالعدالة معي.."(٢)

ويتضافر تسلط المرأة وقهرها له مع تسلط المجتمع، والقوة الحاكمة والقوى العالمية الجميع يقف في مواجهة المبدع يقهره يرفضه "هذه البلهاء المتخلفة. هؤلاء المتخلفون البلهاء. ملأت المكان بالغبار عبئوا المصلحة كلها ضدي. كانت المسألة محصورة بيني وبين المدير العام. انحازوا له. لا موقف لهم. غبار غبار أزعجتني بضربات الشلت من فضلك كفي عن هذا قبل أن أطلب لك شرطة النجدة. قالت شيئا. تفوهت رصدت حركة شفتيها م..ج..ن..و..ن"(٣)

---

(١) الطريق في اتجاه الشرق ص١٠٥،واحدضد الجميع ص٧٨من مجموعة "واحد ضد الجميع "إدريس علي.
(٢) نفسه ص٧٨
(٣) المواجهة الأخيرة ص٤٣،الحصار ص٦٤من مجموعة "واحد ضد الجميع" إدريس علي.

وتعلم الشخصية المتمردة أنها ضعيفة، وأن عليها الصمت وإلا سيخترقونها وساعتها لاراد لانتقامهم "تمام يافندم.. أمسكت بهذا يتكلم في السياسة.. كيف ؟-كان يشتم ويقول طظ فيهم.. من تقصد.. هم.. يا فالح لو كان عندي شجاعة هل كنت أكلم نفسي.."(١)

وقد خلقت تلك الحصارات الشرسة غربة أحاطت الشخصية الرافضة لكل شئ "أيها السادة.. إليكم هذا النبأ: جاءنا الآن من الأرصاد الجوية أن درجة الحرارة سترتفع وتنخفض عدة مرات

في اليوم الواحد.. أجمع العالم.. وسنواليكم.. سامعة ! لا تسمع ولا تريد.. تركتني وعادت لتتكور باكية "(٢)

وقد يرسم شخصية ليست هى "أنا" الكاتب ويقف في الطرف المقابل فيتبادل مع الآخر موقعه لكي تتسع مساحة الحرية له فيعرض رؤيته لواقع الفقير -(وهو النوبي المستقر في المهجر)- تلك الرؤية التي تثقل وجدانه وتشعل ثورته وسخطه، وليعري الطرف الآخر الذي لا يعنيه غير إشباع بطنه، فيواجه المجتمع ويحمله مسؤلية تواكله وتخاذله وجهله "كنا في أواخر شهر رمضان، الليلة التي يقولون أنها خير من ألف شهر وتنفتح فيها طاقة السماء للمحظوظين.. صليت لبست جلبابي الأبيض.. لأطلب من ربي كل ما يفرج كربنا.. ولما وجدني مصراَ على موقفي سألني جاداَ: طيب لنفرض أن المسألة ممكنة فماذا ستطلب:...أنت طيب لكنك ورثت غباء أبيك ودروشة أمك.. فالسماء لا تمطر أموالا مهما دعوت، فلابد من أسباب.

(١) المواجهة الأخيرة ص٤٣،الحصار ص٦٤من مجموعة "واحد ضد الجميع" إدريس علي.
(٢) الحصار " من مجموعة واحد ضد الجميع.إدريس علي.الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٥.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ومساكن الحكومة تحتاج لسعي دؤب ولا تُمنح لأمثالنا.. وأختك الصغرى مرضها خبيث، والكبرى لو جاءها عريس ثري.. سيكون كهلا.. دائما الأسباب يا شيخ فته"(١)

وقد يتمرد على ذاته فيقسمها شخصين يبحث أحدهما عن الآخر، فيبرز بذلك ملامح الشخصية السياسية، والوضع السياسي الذي يزرع الشك بين رموزه العاملة، فتسقط في هوة التخبط والإحباط والانسحاب حتى من ذاتها، ويتصور أن المجتمع يتربص به ويحيك له المصائب، فقد رأى بالصدفة شهادة قديمة فتصور أنها دسيسة قُصد بها إشراكه في شئ لا يعرفه، ولصاحبها سمات يعلمها فهى " رباعية الاسم المدون بها دليل على أصل صاحبها العميق الجذور، والقرائن تؤكد وجوده، وهناك من زامله ومارس معه شتى صنوف الحياة " إذن هو يعرفه بدقة ولكن ينبش في ماضي والداه وماضيه ليدلل على ذوبان الحق في الباطل فالزوجة تقول "عمي هو السبب، رضيت به وأنا سيدته لكنه انتهازي وضيع، بدد جزءا من ثروتي وسمعتي فتحملته، يمسيني ضربا ويصبحني شتما فصبرت.." وقريب لها يقول "لا تصدقهم لأنهم مفترون كذابون..إنه يعجز عن ضرب قطة حتى لو خربشته.. فعلت به الأهوال.كانت تعيره وتضربه وتسبه..فهو السائق والطاهي والخادم والزوج بالاسم"(٢)

وقد يبوح لنفسه أو يسترجع لها ما مضى، أو يهذي بما ليس له وجود إلا في داخله، فيستخدم تقنيات "الاسترجاع" و"البوح" والهذيان لينقل لنا حالة المحاصر بين حرارة الماضي وصدق الواقع "هم يدفعونني للهرب

(١) هل أنا السبب " نفس المجموعة ص٣١

(٢) المنسحب "من مجموعة "واحد ضد الجميع "الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٨٨

إليها، وهى تقدف بي إليهم.لم يبق أمـــامي غيـــر الشـــوارع والمتنزهـــات والمتاحف، وصحف المعارضة، وروايات المجانين، وكتب التطرف، وهـــذه الأغنية الرائعة زحمة يادنيا زحمة –زحمة وتاهو الحبايب... ومازال السؤال معلقا من هو صاحب المولد فعلا ؟ وبدأت أدرك الآن حقيقة..الشعور بـــأني أنزف من داخلي نزفا بطيئا متواصلا.."[١]

أما حجاج أدول فقد بلور مأساة الفقد والضياع الذاتي والقـــومي فـــي شخصية المهاجر والمهجور عنه، وما بينها مـــن حـــب تقطعـــت أوصـــاله واحتياج ذاب في الحرمان، فنجد شخصية المهاجر بما تحملـــه مـــن أبعـــاد اجتماعية ونفسية وجسمية فاعلة في احتكـــاك الأحـــداث وتطورهـــا، أمـــا المهجورة فهي الحبيبة والوطن والجذور والهوية والرسالة التـــي تختـــرق زمانها ومكانها "أنا آشا أشري جمالا ورقصا.. صيام يا نساي أقول لك..قبل كل شئ..حمام عرسنا في النهر.. طهر.. صيام يا نساي ناس النهر يسألوني عنك.. فبماذا أجيب "[٢]

وقد استوعب حجاج أدول ماضي قومه، واســـتقبل الواقـــع الفـــاجع بحزن هادئ وقلب عامر بالحب لكل ما حوله من قديم أو حديث، فطاوعتـــه لغته فأبدع قصصا تتلمس طريقها للقارئ وكأنها أُحجية تتســـرب مـــن فـــم ساحر رقيق لتبث روح الإيناس بين العمل والقارئ، ويزاوج بين ما يحـــدث على أرض الواقع وما كانت عليه النوبة، وكان للغة والأسلوب المصبوغين بالصبغة النوبية دور في حمل هذا العبق الشعبي والديني ":همهمة جـــدتي..

---

(١) "المواجهة الأخيرة " من مجموعة "واحد ضد الجميع " ص٣٩.

(٢) الرحيل إلى ناس النهر " من مجموعة "ليالي المسك العتيقة " حجاج حسن أدول–دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع٢٠٠٦،ص ٣٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وونور "يارب".. وونور يارب لا تفضحنا..وونور حسن الختام ياسلاااام النيل.. والنخيل.. والشط الطويل... والشمندورة.. ياسلاااام..الجبل.. والجمل.. وقيراط الأمل... ونجع بهجورة "(١)

ومال أسلوبه أحيانا إلى الفكاهة والسخرية، وتقابل المعاني "يبدأ كل موال جنوبي ياسلام :ينتشي كل سامع. ولم لا ؟والسلام اسم من أسماء إلاهنا؟..حرف النداء يأخذ جذوعنا للأمام بميل ناحيتكن السين من السلسبيل. واللام مشبعة من الأفواه الرطبة..ومع الميم القاطعة، تهبط الأيادي سريعا لتبين كم..كم طربنا "(٢)

ولعلنا حاولنا الاقتراب من الكاتب النوبي ولمسنا قدرته على إيلاف رؤيته ومزاجه وتجربته مع لغته وأسلوبه وصوره ورموزه وتقنياته القديمة والحديثة، ووجدنا أنه يمتلك طبيعة بكراً وروحا تحمل عبق النوبة وفطرتها، فتَنقلَ على أعطافها يلتقط صورة منها وينقلها لنا بنضارتها، وبما يناسب الأجواء الإنسانية والسياق المجتمعي العام، فهذا السياق يمتزج فيه الألم مع الذكرى.والنيل عند أهل النوبة هو الحياة، وهو سر البقاء والخلود والسعادة فهو الأنيس والجليس، يعشقونه في رضاه، ويخشون غضبه ، فلا تخلو قضية أو صورة أو غنوة أو مناسبة من ذكر النيل. بل هناك مناسبات مرتبطة بالفيضان والجفاف الذي يتحكم في مسار حياة النوبي.

والمعتقدات الشعبية التراثية حاضرة عند النوبي إما طقوسا يمارسونها بشغف، في أفراحهم وأحزانهم وعلاقاتهم المجتمعية، أو سلوكيات شعبية

(١) زواج هجلة مرغني "من مجموعة غزلية القمر –الحضارة للنشر ص٦٦
(٢) "زينب أوبورتي " من مجموعة "ليالي المسك العتيقة "صـ٤.

متوارثة ملتحمة بالوجدان الشعبي مثل عادات الخطبة والزواج "للي للي صلاة عليك يامُهَمِ..ديي ديي ديي زت زت أبشر ياوردي أبشر –وردي ياناس بااسطيبو –يا واحد كاشفيه جون بااسطيبو.–يا واحد"(١)

٥-الفولكلور و المجتمع و الثقافة :

الفولكلور مأثورات معرفية أنتجها أفراد مجتمع ما، فأورث ذلك المجتمع تلك المعارف فاحتملها وحفظها و دأب على إعادة خلقها و هو "بقايا لمعتقدات شعبية و أثر لتأملات الشعب الحسية و بقايا قواه و خبراته، حينما كان الإنسان يحلم لأنه لم يكن يعرف، وحينما كان يعتقد لأنه لم يكن يرى، و حينما كان يؤثر فيما حوله بروح ساذجة غير منقسمة على نفسها " كما وصفه (هردر).

وهو محصله كاملة لثقافة شعب يرسم –جيلا وراء جيل – بالكلمة و الإيقاع و الطقوس و العادات و الحكايات بوعي و بغير وعي – صورة شعبية كلية يمسك فيها الفرد بيد الجماعة مترابطين بعهود الماضي المتراكم من أقدم العصور حاملين ملامح الأجداد النفسية و الثقافة، فتصير وثيقة إنسانية ثقافية حية للإنسان المُحدَث يقرأ بين سطورها تاريخه الشعبي، ويعترف على ما رصدوه من أحداث تسجل أمجادهم التاريخية بصياغة أسطورية تستند للواقع تارة، وتحتمى بالغيب تارة أخرى، فتتكون لديه رؤية واضحة رصينة عن أصله وأصل الشعب الذي ينتمي إليه، و أجداده من الأبطال الذين صنعوا تاريخه، وعلاقة شعبه بغيره من الشعوب و الأماكن التي كانت مسرحاً لنشاط شعبه الحضاري عبر التاريخ فتتكون لديه قدره على الإبداع و التجديد.

---

(١) غزلية القمرمن مجموعة "غزلية القمر " ص ١٠٧

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والمأثورات الشعبية ليست أثر قرى ونجوع و مرددات ريف، وإنما هي خرائط تتوزع على أنحائها "خصائص الجماعة بثقافتها المتراكمة في مرحلة معينة من مراحل تاريخها، و على الرغم من سلبية العلاقة بين الوحدات الاجتماعية في بعض الأحيان فإن الأخذ والعطاء سمة أساسية ورئيسة في تاريخ الفنون و الآداب الرسمية والشعبية [١]"وهي كما يرى د/عبد الحميد يونس – تأخذ في تأثيرها مسارين متوازيين:

الأول : - من قمة الكيان الاجتماعي إلى سفحه أو قاعدته.

و الثاني: - من القاعدة إلى القمة. فالجماهير العريضة من الشعب تردد ما تحفظ من حكم و أغاني و أمثال، وتستفيد من التجارب الإنسانية و الخبرات الشعبية التي أضحت "عناصر ثقافية حية و مؤثرة وفعالة تساير الشعب في تطوره مسايرتها لحياة الأفراد في سلوكهم وعلاقاتهم، وهذه العناصر الثقافية تتسم بالمرونة فتسقط الحلقات الميتة أو التي ماتت وظائفها، و تعدل الحلقات القابلة للتعديل، بحيث تساير مراحل التطور"[٢] ومستجدات الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية الخلّاقة لفكر جديد و مجتمع جديد، وتستوعب أي موضوعات أو أحداث تقع في أي أرض لأي مجتمع.

(١) دفاع عن الفلكلور د/عبد الحميد يونس.الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣.ص١٥
(٢) المصدر السابقة صـ٦٤

٦-النوبة أسطورة من الأساطير :-

بلاد النوبة تمتد من الجندل الأول بعد أسوان إلى بلدة "الدبة" جنـــوبي دنقلة، وهي قسمان :

قسم شمـالي:- ويسمى النوبة السفلي داخل حدود مصر، يمتـــد مـــن وادي حلفا حتى أسوان،

وقسم جنوبي: –ويعرف بالنوبة العليا من وادي حلفا إلى بلدة "الدبة". وهي شريط ضيق صنعه النيل على ضفتيه، فصار النيـــل قِبلـــة الحيـــاة و الموت عند إنسان النوبة الذي استوطنها في العصر الحجري، وتـــرك لنـــا آثار أسلحته وآلاته الحجرية في مدرجات النيل، وترجع إلى الألف الخامسة قبل الميلاد، وتسمى المجموعة الحضارية (أ)"عصر ما قبل الأسرات" وهناك مجموعة حضارية ثانية (ب) ترجع إلى "عصر الأسرات الأولـــى" والســـلالة النوبية القديمة سلالة مصرية تنتمي إلى العصر القوقازي، اختلطـــت عبـــر العصور – بسبب الإغارة أو الهجرة أو التجارة – بقبائل البجة في الصحراء الشرقية و بقبائل ليبية في صحراء ليبيا، وبالسلالات الزنجية في الجنوب و بالغرب و البوسنيين بعد الإسلام. وقد امتزجـــت تلـــك الســـلالات وكونـــت جماعات رئيسية هي.

الكنوز :

وهم قبائل ذات أصول عربية مثل ربيعية و مضر، وتســـكن دابـــوت ودهميت وأمركاب و كلابشة و أبوهور، ومرواو، ومارية، وجرف حسين، وقرشة، و الدكة، والعلاقي، وقورته، والمحرقة و السيالة و المضيق.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثم قبائل العليقات :-

وهي عربية الأصل حجازية الموطن نزحت إلى سيناء، وهاجرت منها إلى أن استقرت في بلاد النوبة، وهم يسكنون منطقة عظيمة الأهمية من ناحية المواصلات والتجارة وهي:- السبوع، وادي العرب، شاترمة، المالكي، السنقاري، كورسكو، وآخر جزء من النوبة المصرية تسكنه الفاديدجا.

قبائل الفاديدجا :-

يمتد موطنهم من أرمنا وأبو حنظل والريقة والديوان والدرة، تنقالة، وتوماس وعافية، وأبريم، عنيبة، والجنينة والشباك، ومصمص، وتوشكي وفريق، وبلانة، وقسطل. وبالرغم من هذا التعدد القبلي، واختلاف الأصول واللغة أحيانا، نجد عاداتهم في أسلوب حياتهم، وطريقة البحث عن الرزق، وتعاملهم مع جيرانهم ومع غيرهم من الشماليين واحدة، وتتحدث تلك القبائل فيما بينها باللغة النوبية، وهي لغة يرى العلماء أنها من أصل حامي وتأثرت باللغة المصرية القديمة واللغة القبطية، ثم اللغة العربية بعد الفتح الإسلامي المتأخر لها ١٥٠٥م- في عهد السلطان قلاوون إذ سقطت دنقلة وزالت المسيحية تدريجيا من النوبة وأصبحت مسلمة١٠٠%"[١]، ولكنها احتفظت بخصوصيتها وطابعها، متحدية القفزات التاريخية والدينية والبشرية، وظلت على ألسنتهم حتى اليوم، ويقسم علماء اللغة المستشرقون اللغة النوبية **ثلاث مجوعات**:-

(أ) نوبة النيل.

(ب) نوبة الكوردفان.

(ج) نوبة التل ويتحدث نوبيو مصر بلغة المجموعة (أ) نوبة النيل[٢].

---

(١)المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار- تقى الدين المقريزي طبعة بولاق ٢٧.هـ جزء١- ص٥.

(٢) الخرافة و الأسطورة في بلاد النوبة، إبراهيم شعراوي الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤،ص.١٣٣

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ومعظم بلاد النوبة صخرية ورملية التربة، لا تصلح للزراعة أو العيش الآمن، لذلك كان النيل مصدر الحياة، وشريان الخير والبركة والاحتواء للإنسان من قبل أن يولد، إلى ما بعد وفاته، فعاش على فضله يسعد بخيراته ويرهب نزواته.

ويعترض مجرى النيل من جنوب أسوان حتى وادي حلفا ستة جنادل، كانت عقبة في طريق من حاول الوصول إلى منابع النيل، فتخلقت من تلك المحاولات أساطير وخرافات لم تسلم منها مؤلفات علماء التاريخ والجغرافيا الذين أكدوا أن مجرى النيل كان من عمل البشر، أنه يخرج من جبل القمر ويتشعب " شِعب يسمى أسيفى، أهله كالوحوش، ثم ينفرج منه فرجة، ويمر منه شعب إلى نهاية المغرب في البحر المحيط يسمى جبل وحشية، به سباع لها قرون طوال لا تطاق ... ومن جبل القمر يخرج نهر النيل، وقد كان يتبدد على وجه الأرض، فلما قدم نقراوس الجبار بن مصرايم الأول ابن مركابيل بن دواب بن عرياب بن آدم عليه السلام إلى أرض مصر و معه عدة من بني عريان واستوطنوها، وبنوا بها مدينة أمسوس و غيرها من المدائن، حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم"[١] وبنوا السدود والقناطر فتحكموا في حركته و دأبوا على تهذيب ضفتيه، فظل الإنسان النوبي الذي ورث النيل بخيراته وأساطيره يتداول تلك الحكايات والأساطير فيحفظها و يرويها لغيره، و في روايته يغربلها أو يضيف إليها أو ينبت أفكاراً مضادة لما جاء فيها، فيلخص تجارب القدماء وخبراتهم ويحدد رأيه في الحياة وأخلاقه وقيمه ومثله العليا، ويتخذ منها درعا نفسياً واجتماعياً يحتال به

(١) صفحات من تاريخ النوبة ترجمة د.أحمد سو كارنو عبد الحفيظ .ابن خلدون للطباعة والنشر ص٦٩"عن النوبيون شعب مسالم "اروبرت فيرنيا.

على القوة الغيبية التي تحاصره من وراء الجبال، أو من أعماق بحر النيل، أو القوى البشرية التي ما فتئت تفتك بأرض النوبة وشبابها، فتسلب ما استصلحوه من أرض، وتخطف الصبية والشباب لبيعهم أو اتخاذهم خدماً و عبيداً، أو القوى الطبيعية والنيل الحبيب أقواها وأقساها، فهو إذا فاض تجبر وابتلع الزروع والبيوت والنخيل وسلط عليهم الزواحف و الحشرات القاتلة، وإذا غتض بخل عليهم، فتجف الزروع و الضروع ويزحف عليهم الفقر والجوع والنصب، أما شاطئ النيل فهو محط الأمن والعشق بالنهار، ومهبط المخلوقات الشريرة (البشرية والحيوانية و الغيبية) التى تخرج من النهر، أو تنزل من الجبل إلى النيل ليلاً، فضلا عن الثعالب و الضباع و العقارب الدفان والثعابين التي تطاردهم ليل نهار، ولو لم يكن لتلك الأساطير والحكايات من فائدة غير تبرير العيش في هذا المكان مكان الأجداد الأبطال، وسرد تاريخهم لبث التواصل في نفوس الأجيال، وتقوية الإحساس بالذات والهوية القومية – لكانت جديرة بالبقاء و الخلود ولكنها استطاعت أن تذوب في فكره ووجدانه حتى أصبحت "ذات أهمية حيوية تجعلها في مستوى النخلة، التي تظله وتطعمه، وتهيئ له سمره وتصنع منها أدوات و تساهم في بناء بيته، وهي متفوقة على النخلة تحل من المشكلات ما لا تستطيع إلا الدماء أن تحلها، فإذا لم يكن في النوبة حوادث قتل..وإذا لم يعرف السلب و النهب، والاعتداء فقد ساهم المجتمع الشعبي في تهيئة وجدانه..للمعاني النبيلة. زرع الأمن في ربوع النوبة "[١]

(١) الخرافة و الأسطورة في بلاد النوبة صـ٣٣.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

٧- كانت ... نوبة :-

النوبة كانت أسورة في يد أمي من ذهب، النوبة صفحة في كتاب طويل لا يطويه في وجه الزمان أحد، (من لا يعلمه الزمان، يعلمه أبوه، زمن لا يعلمه أبوه تعلمه البلاد)، كنت تقول لي : "ها هي الصحاري، أمانه أسلمها إليك، ها هو البحر، إن شئت تلفه عمامة على رأسك، ها هو النخل، وللكتاب آخر، أما بلادك ... فلا "..! (إبراهيم فهمي)(١)

كانت النوبة أرضاً يسكنها الأمن والود و التراحم، يجمعهم شاي الضحى و هم يقومون بالزراعة بطريقة تعاونية مشتركة "تدوجاً" فيسردون الذكريات ويغنون المواليا النوبي، وشاي العصر حيث الاسترخاء الأسري بعد العمل، وبعد غروب الشمس تجتمع بيوت الحي في بين الراوية أو الراوي وهو حافظ للتراث و مؤلف و مبدع، إذ تتملكه روح عجيبة تساعده على إثارة المستمعين و ابتكار ما هو جديد.

والروح الجماعية هي طبع النوبي و طابعه في كل سلوك يقوم به النوبي هو في إطار الجماعة ومن أجلها، الأفراح في مواكب، الاشتباكات تعقبها مجالس الصلح، الموت توازيه مهرجانات فتذبح الذبائح " لتوزع على الفقراء و المساكين ثم على المقرئين ورجال الدين ثم الضيوف الذين يأتون من قرى بعيدة، ومع كثير منهم طعام كثير يكفيه وآخرين معه، ويجمع الأطفال الحصى من الجبل ليسبحوا باسم الله فوق قبر الميت وتظل زوجة الفقيد في حداد هامدة ٤٠ يوماً. ويعدون له عشاءه يومياً و هو ميت مدة أربعين يوماً، نفس الأطعمة التي كان يفضلها وفي نهاية كل يوم يُقدم

(١) العشق أوله القرى. إبراهيم فهمي صـ٢.

للأطفال وعابري السبيل "[١]حتى حدث ما لم يكن حدوثه بد، وهو تعليات متتالية لمجرى النيل " من عام ١٩٠٢إلى ١٩٣٤ "حتى تم بناء السد وبحيرة ناصر، فابتلع النيل الزرع والبيوت فاستغاثوا بالجبال وتشبثوا بالأرض، وأرغمتهم الحكومة على الهجرة مقابل تعويضات رمزية..ولامفر.."هالبلاد حبروا أصابعها فوقعنا عليها بالقبول، "كشتمنة" جديدة، لا هي مدن و لا هي قرى، ما خلقها أبوك ولااختارها القلب...آه ياأنباب (ياأبي) لويعرف من أبدلك البلاد ببلاد، إن الأرض ليست جلبابا يضيق عليك فتلبس غيره"[٢] " فأصبح الجمع مفرداً، يعيش الغربة ويلوذ "بالوحدة ويسبح في الضياع و الفقر على امتداد المهاجر الموحشة" وحدي ولا أحد الساعة يفهم "لغاي" والأهل الحارسون على مصاعد العمارات، والبيوت، متغافلون عني ويضعون عمائمهم على آذانهم، حتى لا يسمعوني، على عيونهم حتى لا يروني أقول : السلام ولا رده أحد على [٣]"

وفي المهاجر على وهج الاغتراب والفقر والحنين نضجت أقلام متبلة بالعهد القديم تبعث عبق النيل، والمسك والصندل، فتلوذ بالماضي تارة، وتصارع الحاضر تارة، وتهدم تارة أخرى الماضي، وتزرع على أرضه صنوفا من الخير يتذوقها كل البشر " فيتحطم كل ما كان بين أهل النوبة وبقية البشر من فرقة وعداء، وكان رائد هذه الأقلام والفاتح لأبواب النضال والإبداع النوبي "محمد خليل قاسم" مبدع الشمندورة، ملحمة العشق للنوبة والحرية، فكان على حد تعبير فريدة النقاش بطلاً " يكشف لكل الناس عن

(١) الخرافة و الأسطورة صفحة صـــ٨٥.
(٢) العشق أوله القرى " إبراهيم فهمي ص٣٦،١١٨٦
(٣) نفسه ص١٨٨

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

قدراتهم غير المحددة، قدراتهم على المقاومة و العمل، على الحب النموذجي و النضال البطولي على مواجهة الطبيعة والأعداء ..حينئذ نجد لتعبير، الجماهير المبدعة " تجسيداً فذاً .. ينساب الشعر دون أن نعرف مؤلفه " ينبثق الرقص تعبيرا عن أشواق الكل "تقام حياة جماعية يروي الجميع صبارها[١]" ويجنون المعاناة والاضطهاد والعزلة، فسجل بتلك الرواية تاريخ مجتمع كاد طوفان النيل والقمع أن يلتهمه، فترك للفن و التاريخ وثيقة تحفظ هُوية و تاريخ و ثقافة ذلك المجتمع النوبي الفريد.وهو ليس نوبيا فقط وإنما هو نوبي مصري، عاش آلام عامة الشعب وغُل بقيودهم أدرك دائهم الدفين ألا وهو الجهل و البطالة، لذلك فلم يبدع الشمندورة ليؤكد " الهُوية المكانية و المجتمعية والتاريخية التراثية للمجتمع النوبي في إطار المواطنة المصرية، إنما تحمل كذالك رسالة التعليم والمعرفة لكل النوبيين، بل المصريين عامة باعتبارها طريقة تحرير من التخلف والدونية، وطريقاً للمشاركة الفعالة الإيجابية في تنمية وتطوير وتجديد الوطن الكبير في مختلف جوانبه السياسية و الاجتماعية والتراثية والثقافية والحياتية عامة "[٢]

وقد برزت أسماء نوبية كثيرة، كرست أقلامها وسواعدها لنقش اسم النوبة و مأساتها على صفحة النيل من منبعه إلى مصبه، من تلك الأسماء " حسن نور – يحيى مختار – حجاج الباي – عمر نجم – حجاج حسن أدول – إدريس علي – إبراهيم فهمي"

(١) مجلة (أدب و نقد)العدد ٤٨- ١٩٨٩ صـ٣٥.

(٢) البحث عن الشمندورة. سيد جمال – الفقرة المحمود أمين العالم صـ ٦. الأمل للطباعة النشر.

يُعد[التراث العربي النوبي] خاصة عصا يتكئ عليها الفنان النوبي، و يهش بها على أحزانه وأوجاعه، علها تلقف القلوب الغافلة عن العدل والحق والإيمان به و بقضيته، والعمل الأدبي "ليس نيزكاً يسقط عَرَضاً فوق الأفراد وإنما إبداع فرد في مجتمع تحكمه عوامل كثيرة، من الاقتصادية حتى الأيديولوجية.[١] لذلك سعى هؤلاء الكتاب في أعمالهم الشعرية والروائية والقصصية لإنتاج أعمال تعبر عن ذاتهم و هُويتهم، ويكون لها دور فعال في غربلة ما توطن بين أهليهم من معتقدات موروثة، تقف في طريق تقدم الوطن وتحول دون نضجه العلمي والاجتماعي والإنساني، وتوظيف ما ترى أنه سند ثقافي يسهم في بلورة الشخصية المصرية و الحفاظ علي قيمتها وجذورها و هويتها، لتكون لها القدرة الفعالة الإيجابية في تنمية المجتمع و تطويره والتوجه الإيجابي نحو العالم المتجدد، فتتواصل معه وتواكب تطوراته. فنجد " حجاج حسن أدول " مثلا يخلق لنا واقعا أسطوريا بأرضه وسماءه وبشره، خارق لكل نواميس الحياة في النوبة فقد كان الجو " أبرد من البرودة ..لأن الشمس هجرتنا وصعدت إلى أعلى القبة في السماء، وتركت سحباً شمالية داكنة لم تكن تأتي. حجبت زرقة السماء ولم يصبنا إلا قليلا من النور، صار نهارنا كله رمادياً .. كل صباح كنا نجد المياه في القدورة والأزيار والأواني المعدنية و قد غطتها طبقة زجاجية شديدة البرودة .. خلصنا من البرد في بداية برمهات .. إذا بصيف حرور يجتاحنا من برمودة، هبطت الشمس و هبطت حتى أنها كل صباح وهي تشرق تصطدم هالتها الدموية بقمة الجبل الشرقي، فيصدع الجبل ويجأر من الهول الذي يجتاحه، فتتطاير صخوره مشتعلة منهارة في

(١) مناهج النقد الأدبي " إمبرت أندرسون ترجمة د. الطاهر أحمد مكتبة الآداب ١٩٩١ صـ ١٢٥

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

هرولة وضجيج حتى تغرق في بحر النيل الذي يمر أسفله مباشرة، فنسمع نحن صوت الماء يولول من نارها .. تش ش ش ش .. " وما جرى " للنيل من شح و الهواء من عطن فأمات الزرع و جلب لنا الفئران و القمل و الدم .. وما جرى للناس من تباغض و تنافر"[١] سببه شخصية مغضوب عليها قد ورثت كتاب سحر عن جدها الكبير الساحر " همرين " فقرأته و استعانت بشخصية أسطورية " الشيطان كاكوكي "كي يحقق لها ما حرمها القدر منه وتسلب من الآخرين ما وهبوا من خير ونعمة فحقق لها بالفعل ما يخدعها به "الملابس من أفخر كتان في دلتا مصر و فراء من طرف الأرض المتجمدة وأحلى عطر من جزيرة العرب، و ذهب أنقى من ذهب " الإنكا " في تشكيلات أروع من روائع الفراعين .. بنيت لك بيتاً هو أعجوبة بالنسبة لبلدكم ملأته بالسمن و اللبن والعسل و البلح وتفاح الشام "[٢] ولكنه لم يعطها ما أرادت أن تحرم الآخرين منه "اعط استبالية (زوجها) القدرة على الرجولة – هووء .. هووء إسالي من خلقه يعطيه يا امرأة يا عبيطة[٣] فأسقط الكاتب من خلال هذا العمل – زينب أو بورتي – العديد من الأفكار، وسرب في ثناياه ملامح الحياة النوبية وما يشغل ذهن أهلها من قضايا ومشاكل، وحلولها الخرافية وسلوكياتهم اليومية حيال بعضهم البعض، وروح الجماعة التي يعيشون بها في السراء والضراء، وعرض لشخصية هامة في المجتمع النوبي، أما الراوي فلم يكن موضوع الأسطورة وشخصيتها هو محور العمل، وإنما رؤية الكاتب للحياة في وطنه وما وقر فيه من أيديولوجيات

(١) ليالي المسك العتيقة "قصة" زينب أوبورتي" حجاج حسن أدول صـــ ٩٠
(٢) نفسه ص٩١
(٣)نفسه ١٠١،

استقت من الماضي، ورغبته في إحداث تحويلات جذرية في منظومة القيم الاجتماعية المتوارثة التي تغريه كفنان لتحديها وكسرها، فهضم وتمثل المواقف التلقائية التي تحدث بشكل طبيعي في بيئته، متتبعاً التفاصيل الصغيرة واللفتات الواقعية، يقول واصفاً الحر الخرافي الذي أحدثه الشيطان، (كاكوكي)" لا ننام تحت السقائف بجوار الأزيار التي تملأ كل بكور وكل غروب، بعيدين عن بعضنا نكاد نكون شبه عرايا، لا حياء ولا خجل فمن يطيق أكثر من قميص على جسده يحميه فقط من سهام الشمس الحارقة و الصهد الواواتي الذي يبحث عنا أينما كنا ويشكشكنا حتى و نحن في الظل، الرضيع لا يتحمل أن يلاصقه حتى لحم أمه .. هل تتذكرون حسن الضرير الذي مات من فيضانين مراً ؟ سبب عماه أنه كان رضيعا تلك الأيام وخلال رضاعته هطل عرق أمه الحمضي في عينيه .. أعماه . مات أغلب الرضع في ذلك الشهر"[١] فشرح بتلك التفاصيل خلفيات المجتمع السلوكية، وما تنم عنه من ذكر ومعرفة تتوارثها الأجيال، فيأتي بردود أفعال مضادة لما قبلها لتعديل هذا الفكر وكشف سوآته، فالمجتمع النوبي يبجل السحرة و يَرهَبهم، ويخلق منهم كهنة يتوارثون السيطرة على عقل وفكر البسطاء والعظماء منهم، فينسونهم ما قدر لهم عند الله ويفرقون بينهم بسلطتهم وسحرهم، وقد كشف الكاتب ما يترتب على أفعال هؤلاء السحرة من خلال حوار "زينب أوبورتي" والشيطان "كاكوكي"، حينما أرهب ابن عمها وأهل القرية بالحيوانات المتوحشة، ورفضها لتجاوزه أوامرها، "ماذا فعلت بابن عمي؟ هل أنا طلبت منك ذلك؟ " حميتك وأعطيته درساً، الآن كل ناس القرية يخشونك تماماً – أريد حبهم – حب من؟ الذين حرموك من رجال ؟

(١) زينب أوبورتي، حجاج حسن أدول صـ١٠١

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

رضيت بقسمتي – هووء ..الآن ؟ كان من الأول"[١] وماذا يفعلا لمجتمع المتعاون لمن يقع في أسر السحرة ويوظفهم لإيذاء – أهله .. " أما ناس القرية فلم يفعلوا بعد ذلك شيئا ضد أو بورتي شرخهم الخوف، لكن بينهم وبين بعض كل ساعة مشاجرة .. بث الشيطان بيننا الكراهية و البغضاء[٢]" خاصة بعدما تمكن في النفوس وحبسهم في قمقمه" أنا كاكوكي بشيطنتي استنزفت بقية عصبك في الشهرين الماضيين، وامتصصت نور بصرك بناري وعكرت بصيرتك."[٣]

وقد وضع الكاتب لتلك الغواية نهاية، فاقتنص الأزمة التي وقعت بين " كاكوكي" وزينب أوبورتي لـ" يسقط الحلقات الميتة أو التي ماتت وظائفها، ويعدل الحلقات القابلة للتعديل، بحيث تساير مراحل التطوير، وتضيف حلقات جديدة تحث الجماعة بالحاجة إليها[٤] وبتلاؤمها مع منطق الحياة وتقدمها المطرد، فقد تخلى " كاكوكي" عن "زينب أوبورتي " وسلب منها كل شئ، وتركها تتململ بين الوحوش الضارية، ووقف أهل القرية أمام الخفير الشجاع الذي تصدى بمفرده للسحر ليدافع عن الجماعة، ليخطب فيهم ويسقط من ذهنهم الاعتقاد في السحر والسحرة، ويبعث فيهم روح الجماعة لحل مشكلاتهم الخاصة والعامة، وتحقيق آمالهم دون اللجوء لذلك المخدر النفسي ففزعت بهية إلى عمتها الساحرة و أمسكت بشعرها الأكرد "يا ساحرة يا حفيدة السحرة يا ملعونة دنيا وآخره، تسببت في بلاوينا.. أطاحت

(١) زينب أوبورتي، حجاج حسن أدول ص٩٧
(٣)نفسه ص ٩٦
(٣) ليالي المسنك العتيقة "قصة" زينب أوربورتي " حجاج حسن أدول صـ٩٧
(٤) دفاع عن الفلكلور. د/عبد الحميد يونس. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣صـ١٣

بها .. بعنف و قوة لا تعلم من أين أتتها"[١]، أما رجال القرية فقد " حملوا المشاعل المشتعلة فأنارت آخر الليل، تسلحوا بكل سلاح و أقسموا أنهم لن يتخاذلوا مرة أخرى وسيعرفون بيت السحر وبه الأوبورتي حتى تكون عبرة لمن يعتبر"[٢].

يقولون إن " المرء لا يجد الظل إلا تحت شجرة عميقة تحت الجذور " وقد كانت النوبة تلكم الشجرة التي صمدت أمام طوفان النيل، فاستظل بها [إبراهيم فهمي] وصنع من عشقه لها ربابة ينشد بها وعلى أنغامها سيرة الذات المفردة، التي هي سيرة ذات الجماعة، فالأنا هي البطل السارد في معظم أعمال " إبراهيم فهمي " القصصية، فعلها الأساسي هو العودة إلى الزمان الأول إلى الأصل والماضي المفقود، واستعادة ذلك الماضي قد تكون " أشد وطأة من أحداث الحاضر ووقائعه للوعي، كي يواجه قسوة الحاضر بما هو أقوى[٣] ويحدد النقد الدوافع النفسية والاجتماعية وراء اتجاه الكاتب نحو السيرة الذاتيه، منها توضيح المواقف، وتصحيح الأوضاع، و الثأر النوبي كل ذلك مجتمعاً فكانت ضربة قاسية جعلته يخرج مذعوراً لظاهرة ما وشكوى الانصياع والأمتثال لدواعي التسلط و الطغيان وقد نال كل ذلك مجتمعا فكانت ضربة قاسبة جعلته يخرج مذعورا إلى غربة موحشة، يفقد نيله و خيراته و كرامته، و في المهاجر أحس النوبي بذاته فراودته شخصيته القديمة و تاريخه، فوقف نفسه لوطنه يتوسم فيها البطل المجاهد ابن التاريخ والحضارة " .. يقولون أنك كنت ضابطاً في الجيش كنت شاعراً

---

(١) ليالي المسك العتيقة "قصة "زينب أوبورتي "حجاج أدول صـــ٩٧.

(٢) نفسه ص١.٧،١.٥

(٣) زمن الرواية. د/جابر عصفور /الهيئة المصرية للكتاب صـــ١٧٩عام ١٩٩٩

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

كنت عاشقاً، كنت مجرماً، كنت ابن ذوات، يقولون أنك كنت جندياً من بقايا جيش روميل " كنت مملوكاً وعمرت، بل يقولون أن " أم الدنيا لما فاجأها الحريق أطفأتها بلعابك فانطفأت ويقولون أنك تخلفت عن رحل الهلالية إلى " تونس الخضراء" أم أنك عاشق؟ ..كنت أخا" لنعيمة " وصديقاً" لحسن " يقولون إن فيك– عرقا نوبيا – أنا كذلك – ولا حسد نقاء (الدما)[١]، وهو يرى في ذاته العاشقة تجسيداً فاعلاً للوجدان القومي وصورة للقوة الشعبية المتصدية للظلم " قالوا أنك كنت جندياً في اليمن، ويقولون: يا بن" الإ يه " أنك كنت كلمة أبداً ما قالها في وجه حاكم أحد.."[٢]

وقد خلقت تلك النظرة له كبطل شعبي له تاريخ بطولي، ورسالة وجودية، الإحساس بالمغايرة عنده، وجعلته ينظر إلى ذاته علي أنها أكثر من غيرها قدرة علي التحمل و المجاهدة، فيحدث بداخله صراع نفسي مرير بين الواقع الناكر لبطولته، و المثال الذي رسمه لنفسه فتعصره الحسرة و الوحدة" الساعة أمشي وحدي كما العاشقون في البوادي، وحدي كما الأنبياء، و الناس الجماعة فرقتهم ورقة من فئة الملعون ووحدي أمشي، لا صورته على كفي، ولا قبعته على رأسي "[٣]، وليس له في تلك الوحدة غير حبيبة تطل عليه كالبدر، فيتوحدان في الحمى و يجرحان بالقدر، و يستقيان الألم ويعز عنهما الدواء، ولا يليق بورثة الأنبياء إلا تراث الأنبياء " طلع البدر علينا، من ثنيات المدينة، طلع البدر علينا من ثنيات البلاد، كأني أحملها علي يدي كأنثى الحمام، للحمام هديل للعشاق غناء، للفرح

(١) مجموعة رمش الصبايا " قصة البهلول صـ٢٧-٢٨
(٢) نفسه ص٢٨
(٣) مجموعة "رمش الصبايا" قصة "حظرالتجول غيرساري على العشلق "صـ١٦.

جناح، طلع البدر علي من ثنيات البلاد، فنطير نطير بقلبين، جنـــاحين .. فتصيدنا أسلاك البرق، وأسلاك الحافلات صواعق من نار ومصايد الطيور، كأني أحملها على جناحي فتسقط من جناحي، فلا أعرف من أي جهة كريمة يتدفق الدم مني، منها، و لا تراب الأرض مراهم للجراح[١]

وللرسل حياة فطرية تلقائية، ترتبط بالصحارى والطبيعـــة، وتنهـــل المعرفة والخبرة منهما لتعطيها لكل البشر، قبل أن تطمسها المدن. وقد ذاق " إبراهيم فهمي " تلك الحياة وعرف أن الأنبياء يحبون كحبـــه الصـــحاري " ويكرهون المدن، والمدن لا تحب أولاد الصـــحاري، ولا أولاد الصـــحاري يحبونها، (ها هي يا ولد عصاك تهش بها على غنمك وها هـــو رغيـــف)، كانت البيوت بعيدة عني، فأجري وراء الماعز لما أجوع، أحلب اللبن فـــي بطن رغيف، (ها هو البحر نيل و بحر)إن شئت ألفه علي رأسي عمامـــة، وإن شئت أفتحه كتاباً، " العلم موطنه الصحاري الوسيعة، العلـــم موطنـــه البحر"[٢].

قد ورث مثلهم و مثل البطل الشعبي النسب الشريف الممتد في كنوز، وسبقت مولده نبوءة بمزاياها التي سيخرق بها الواقـــع المظلـــم، وينشـــر النهار الذي يحمله أبناؤه للمدن، فهو علي وفاق مع القوة الغيبيـــة و مـــع القدر، وتبشر الأم به وتبلغ البشرى للأب " حملت منك الجميل فكان نهـــاراً بعده ليل، وكأن النهار ليل، وكأن الليل نهار، وهالولد لو أظلمت الدنيا في البلاد يشتعل كقمر، ويشرق كشمس الصيف، وسوف يأتي على الدنيا ليل لا له أول و لا آخر، وولدي تنير الدنيا من جبهته، ويغير ليلها من النهار

(١) مجموعة "رمش الصبايا" قصة "حظرالتجول غيرساري على العشلق "صـــ٣٦.
(٢) قصة "حظر التجول غير ساري على العشاق " من "مجموعة رمش الصبايا "صـــ١٦

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الطالع على وجهه، زينة القبايل ولدي وزينة العشق، لما تحتاج له البنات في المدائن فيعشقنه ثمرة صبوحة من بلادها، يقلن عليه :.. ولد النهـــار، ويمنحنه أنفسهن في ليلة، أشرقت فيها شمس البلاد، فيلدن منه أولاد اًمن وجه النهار الذي غاب، وبعد أن صار رجال المدن في أفواههم كطعم اللحم المجمد [١]وفي مقابل أولاده – (أولادي النهار والشـــمس) – أولاد الليـــل و الظلام – ولليل مدلول الرعب و الخطر والأرواح الشريرة والأعداء الغادرين والأعمال الخارجة عن القيم والشرائع عند الإنسان الشعبي– لم يروا الشمس – العبادة القديمة كانت تتجه للشمس عند الفراعنة و غيرها، وهي تـــرتبط بسائر أحداث الحياة اليومية بطقوس الميلاد و الزواج والموت.

وقد صنع الكاتب من **[التراث الإسلامي والشعبي]** منظومة متلاحمة للواقع الذي سقط في مخالب الليل و أولاده وكبل أمثاله من أولادهم ويقول " يأتي هالليل فينام الناس أجمعون، تنام معه كلابهم، فيسرقون منه الـــبلاد بلداً، بلداً نرى "بحر الليل" يستدير إلى غير المصب يأتي ها الليل فينام الناس ثم يصحون، يستبدلون العملة التي في أيديهم، يقولون كـــم لبثنـــا؟ يومـــاً يومين، عام عامين ويعرفون عد السنين من طول أظـــافرهم، ومـــن طـــول لحاهم، ومن بطون نسائهم التي حملت من الغريب، وأنجبـــت أولاداً، لـــيس فيهم من فتيان الرجال الذين وضعوا علي وجه الشـــمس شـــيئا، فانحنـــت ظهورهم ناحية الشمس كقوس، يضع أولاد الليل وجـــوههم المحنيـــة فـــي صناديق القمامة كما الخنازير، يأكلون من فتات الموائد ..بعـــدها ينـــامون ويصحون يقولون :.. كم لبثنا ..؟.. عام ..عامين ساعتها ..حبيبتي.. تقول لي ..لا تلمسني حتى يأتي النهار الجميل، هو مهري في يدك، فأنجب تحت

(١) نفسه قصة "ياليل ياعين "صـــ٦٢

أول شعاع للشمس المقدسة ولداً، نفرح به، ونضع على القمر طبقاً فيدور به البلاد " "[١] ".

و[**الأغنية الشعبية**] يمتلكها الشعب ويلذ بترديدها فهي " تطويع الشعب تعبير الأفراد لوجدانه الجمعي الذي يتضمن حاجته في تعددها[٢] " يستغلها الكاتب في هدهده هذا الليل القابع على النفوس والمدائن، علّه يستجيب لغنائه، ويكف عن الخداع والمراوغة " وكان الليل يتأخر عن مواعيده، حينما كان يسامر العاشقين ويسامرونه فينسي النهار الذي بعده، ساعتها نغني له:- " ليل يا أبو الليالي ..ليلك ما لو نهار يا خفيف الروح، يا مجننى .. بالي بيك مشغول ..وأنت نور عيني .. فتقول لي حبيبتي: - لما كان الليل الذي نحبه ويحبنا، يأخذ الليل حبيبي أجمل ما فيه مني، ولا آخذ من جبينه إلا الكحل بالمراود، فغن لي بدلا منه، فأغنى لهما سوياً، أما ها الليل لا تفردي له ولا ترقصي له، فينصب سماءه مشنقة لنا، ثم تخوننا الأرض وتنسحب من تحتنا كطبالي المشانق "[٣].

و قد **أبرز الكاتب** أبطالاً شعبيين يقومون بأدوار ثانوية في سيرته، كالسير والملاحم الشعبية، يجسدون عشق الوطن واعتزازهم به، ورفضهم التفريط فيه، فواجه الجميع كرب الهجرة والاقتلاع بالرفض والاستماتة. فها هو "عثمان بشير" سيد الكنوز الضارب بجذوره في النيل والأرض يناجي النيل كي يعطيه من علمه ويستنفره لنجدته " كلمني يا بحر، أنت هناك وأنا هنا، يا سيد الأكوان يا آخر الأكوان باسم موسى النبي، باسم يونس، باسم

---

(١) العشق أوله القرى إبراهيم فهمي من قصة "الفنجان من حظ العذارى " صـ٧١، ٥.١، ٦٤

(٢) نفسه ص٦٤ "

(٣) نفسه " صـ٧١، ٥.١، ٦٤

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

كل أميرة خلعت لك سوراها هدية وأبحرت عاشقة من ضفافك إلى ضفافك، باسم كل أمير خلع لك تاجه هدية، أعطني اسمك يا جميلاً اسمك، أكلم الناس باسمك(١).

وقوام البطولة الشعبية الشجاعة و الإباء و العزة و الذكاء، مما أهّل هؤلاء الأبطال للتصدي قدر طاقتهم يقول عثمان بشير " وحدي يا بنات، كنت أشعل النار في البواخر و في المراسي فيربطني عساكر البواخر في الجميزة المباركة، يضربني العساكر بجريد النخل فأقول:- أكتب يا بشوري على حوائط البيوت، .. لا نسافر لا نهاجر، لا نسافر(٢).ولكن الشجاعة والقوة لا تكفيان للتصدي للقوة القاهرة فعجز "سيد الكنوز" عن الصمود، وخشي على أهله منها فاصطنع حيلة خدع بها أهله ليشتري بها حياتهم، ويحل تلك المعضلة الكارهين لها " كنت تخاف يا عثمان من واحدة من البنات الكنزيات الكبار، تقول لها: ارحلي فتسلم نفسها للبحر، فكيف الحيلة يا عثمان؟ كيف الرواية ؟يومها .. قلت : يا بنات الكنوز، البحر غاضب فينا من سرق، فينا من زنا، فينا من كذب، نرحل من على ضفافه إلى ساعة يرضى فيها عنا الجميل"(٣)

وتظهر المرأة كعنصر متلاحم مع الأرض تشارك البطل في التصدي للتهجير، و حينما يلجأ للحيلة تدركها بدهاء، فترفض الخداع وتلجأ مسلوبة الإرادة لحلول أسطورية تعتصم بها لتتمكن من العودة " نهاجر يا بنات و لا واحدة كذبتني .. إلا صفية مكي قالت لا يا عثمان كأن كلامك منقوش على

(١) مجلة القاهرة ١٩٧٠،الأغنية الشعبية.د/أحمد مرسي صـ١.
(٢) قصة أقولها دونما تعب " من مجموعة "العشق أوله القرى " صـ٩.
(٣) العشق أوله القرى قصة " رمش الصبايا "صـ٩٣،١١٦،١٠٥

وجه البحر أو على سعف النخل، من يتكلم مجنون، من يسمع عاقل، فكيف يهجر الناس البحر فيرجع وراءهم بحر، لك قمر غير قمر البلاد يكون بدراً غير بدر البلاد ساعتها تعدنا بالبحر و يعدنا البحر بالرجوع، وإذا ما تأخر علينا، أركب الشمس فرساً من ذهب بجناح هناك عند الضفاف و أركب القمر طبق من الخوص، طبق من ذهب يدور بي حتى البحر وينزلني علي الشواطئ "[١] وتخور القوى و تكشف الخدعة و يتغير موقف الجميع من "عثمان بشير" فأصبح لا هو عثمان بشير ولا هو سيد النوبة في العالمين"[٢] ويتفجر صراع بين البطل الشعبي الرئيسي – إبراهيم فهمي– والقوي الحاكمة التي تتحالف عليه، وتطارده وتتخلى عنه قدراته الخرافية فينحدر من علياءه ويصبح بطلاً تراجيدياً تتعقبه الهزيمة والأعداء أوزوريس" فيناجي حبيبته كي تبحث عن جسده وتلم أشلاءه من شواطئ البلاد .. اشبكي شعرك ضفائر .. أجري علي النهر حافية و أجمعي روحي .. يا حبيبتي .. المدينة تجمع عساكرها و تحشد خيلها و ترسم صورتي في جريدة الصباح والمسا مطلوب حيا.. مطلوب ميتا.. مطلوب .. مطلوب .. وترصد مالها و عيالها، ترصد ذهبها،.. مطلوب ..مطلوب ...، ودخلت " ستلا" فدخلوا علي، خرجت من "ستلا" دخلت "البستان ".. دخلوا خلفي، خرجت من البستان .. دخلت "حلوان " خرجت من " مصر القديمة " خرجوا خلفي حتى أدركوني :.. وكان البحر منحسراً إذ أنه أول الفيض ولا وقت فرح"[٣]

---

(١) العشق أوله القرى قصة " رمش الصبايا ص١١٦

(٢) نفسه ص١٠٥

(٣) العشق أوله القرى قصة "رمش الصبايا "صـ١٠٥

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقد صاغ " إبراهيم فهمي "تلك السيرة بإيقاع شعبي سيطر عليها فكراً ولغة، شكلاً ومضموناً، يعزف على تاريخ وعادات، وأمثال، وأحوال النوبة في سلوكيات أهلها المختلفة، وردود أفعالهم تجاه الحياة بأفراحها و أحزانها، و المأساة التي جرت " وجع القلب" لهم جميعاً و التي ظل أسيرها، فملأت قصصه بالتوجع و الصراخ و العويل، الذي يعتمد على دفق الإحساس، بتكرار الصوت الكلمة على حساب الجملة، وتكرار الجملة على حساب الفقرة، مما أثر على بناء السرد وعلى بناء الحدث في قصصه، وقد احتفل بلغة الجسد والأحاسيس وبجسد الأم كضراوة يحتملها فعل العودة إلى الأصل أو بداية الخلق، فتمكن من الارتداد للماضي بحدثه القهري، وتمكن أيضا من استدعاء الإنسان الشعبي بكل ما يملك من تراث حضاري نضر، ومن طبيعة تلقائية، ومن سمات فريدة وهناك من ثقف حاجز التهجير ليعري واقع المجتمع المصري و النوبي الذي تحلل فيه، وما ساد في تلك الفترة من تاريخ مصر من اختلاط بل انقلاب في المعايير الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، مما ترتب عليه تكاثر فقراء الشعب في سفح الحياة المصرية، وتشعب منافذ الظلم و قوى القهر والاستعباد وليس من مفر غير التصدي والوقوف في وجه الخوف والسلطة، ليسنح لطاقاته الكامنة فرصة كي تؤكد ذاتها وتتخطى العقبات الكئود الحارسة لتخلفه عن ركب الحياة، وهو "إدريس علي " ويقول في قصة " القتلة" على لسان البطل سجين ذاته " سأشرب و أشرب ثم أستل سيفي وأغمده في عنق سجاني، بضربة فأفصله .. أكون، ينتهي فأبداً، بغير ذلك سأظل رقماً هزيلاً. ننام و نقوم والدنيا هي الدنيا و الشمس هي الشمس، الناس هي الناس مجمدون.. محنطون، لا أدري عما أبحث وسط هؤلاء السكارى .. أي عبث هذا أفعله

.. كيف أعبر عن حالة تفسخي؟ أرقص أم ألطم خدودي .. رقصوني يا جدعان. – العبيط أهه .. أهه .. كلنا الأذكياء يعرفون ما يهم، فمن منكم يعي هويته ؟ طيب .. من يجعلنا دُمى؟ صمت .. من ختم عقولنا بالشمع الأحمر؟ سكوت ليتني أعود مثل جدي الذي كان يسترخي سعيداً و غذاؤه لقمة جافة و رأس بصلة و قلة ماء .. بصراحة جئت هنا لأقتل أو أُقتل الأمر سيان، أو أملاً في العثور على إنسان حقيقي يقترب من لحظة المخاض .. فيحدثني بشجاعة وموضوعية عن الحرب و الحب و العفاريت والأضرحة والجنة والسماء .. يثريني ويجعل الحياة أمامي جديرة بأن نعيشها، يخلق العبارات و لا يردد الأقوال المأثورة "[١] وظل إدريس علي يجاهر بالعداوة و الرفض لكل سلطة، وقد كان التراث الخام كسلطة يصطنعها الفكر الخامل لتعينه علي خموله وتجمده، ويقف عليه مدعياً الأصالة و الالتحام بالأجداد والماضي دون تفكر أو تمييز بين الأصيل والزائف منه، المتفاعل مع العلم و مع الحاضر والمناقض لهما، وكان الفكر التراثي النوبي المقدس أول أهدافه، فقد ورث النوبي النسب العريق، والنيل المعبود، واللون الواحد والمعابد، والعادات والتقاليد والأفكار والحكاية الفرعونية والمسيحية والإسلامية القديمة، فوجد في ذاته خصوصية وتميزاً – " تعلمون كم نحن فخورون بسلالتنا الخاصة و التي قررنا من أنفسنا لأنفسنا أنها أنفس السلالات[٢] كانت من أهم أسباب رفضه التهجير والتعامل مع عالم آخر غير عالمه، فوكل إدريس علي" نفسه لجمع أوراق تلك القضية شديدة الحساسية،

(١) مجموعة "واحد ضد الجميع "قصة"القتلة" إدري١٢س على كتاب المواهب الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧ صـ٧٤

(٢) "ليالي المسك العتيقة "قصة "زينب أبورتي" حجاج أدول صـ٧٩

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وأخذ يفندها بنداً بنداً ليصحح الوعي الداخلي بالـذات، ويطـوق المفـاهيم والعقائد الزائفة لديها، ويرسم خرائط نفسية و عقلية لهؤلاء القوم، وذلـك عن طريق الحوار بين طرفين متكافئين في الأصل ولكنهمـا مختلفـان فـي الاتصال بالعالم وبالعلم والمعرفة، نجد ذلك في قصة " النوبي" للاستعداد إلى التهجير الأول طالب نوبي اسمه "عبد الله علي محمد " متمسك بكل ما لقنـه جده من علم عن النوبة والنيل والأنساب، أما الثاني فهو" غريب يلتقط لنـا صوراً وهو منبهر، انتشي فعلق مصورته على كتفه وانضم راقصاً بمهارة، مردداً بتوافق و كأنه منا .. لا يبدو أنه من سكان المنطقة أعـرف الوجـوه والملامح و الأصول، لا هو صعيدي ولا هو قاهري ولا سوداني و لا نوبي، أجنبي الملابس أفريقي اللون "[١]

وهو يُدعي "كتبه تيما كوداي" يعمل عالم آثار إنجليزي الجنسية وجاء من أجل مُعمر يدعي "كنود شكنده جدكاي" وهو رجل منبوذ لاعتقـاد أهـل القرية بأنه معاشر للجن وحسود، ويدور الحوار بينهما فيأتي " كتبه بردوده على القشرة التراثية السميكة التي أحاط بها النوبي نفسه، فتتشقق وتطـل منها أنياب الثورة والرفض"- ماذا تقول؟ .. – أرد عليك .

لكنك تشكك في الثوابت – ثوابت؟ – ما ورثناه – أكاذيب و تشوهات – أكاذيب؟ – لقد اختزلتهم التاريخ في عدة أجيال – كيف؟ – أتعرف من هـو عون عبد الله بن نجم الدين هذا؟ – هو جدنا – إنه من قبائل ربيعه العربية التي زحفت من أسوان إلى شمال النوبة – هو جدنا ونفخر به – أيـن إذن جذوركم النوبية و الفرعونية؟ أين بعنخي ورمسيس و نفرتاري؟ لا أدري ..

(١) قصة "النوبي" مجلة الثقافة الجديدة – الهيئة العامة لقصور الثقافة – أكتـوبر١٩٩٨ – العـدد ١٢١ صـ٦.

جدي سيفيدك – جدك مجرد ببغاء – جدي رجل عظيم – لكنه لن يضيف كثيراً[١]

وظل "كتبه" في حالة انتصار واقتلاع، فهو معجب بكل شيء، وضد كل فكر في نفس الوقت، وما زال الطالب النوبي يبحث عن أسلحة حاسمة البتر لتقضي ما يزعم الغريب، يشحذ سلاحه مع نفسه " نيل جدي هذا، هو نيلنا و هبة الله لنا، ليس له علاقة برمسيس وبعنخي و نجم الدين و كشاف الأتراك .. هو نيل النوبيين مثلما موسى نبي اليهود .. ثم قال للغريب : هذا نيلنا فرد عليه – ألم تتعلم الجغرافيا يا شاطر، فالنيل ينبع من الجنوب ويصب في الشمال، وفي رحلته الطويلة، يمر ببلاد كثيرة من بينها بلادكم، فهو ليس نيل أحد بالذات، إنما نيل كل البشر"[٢]

ويظل الكاتب يسعى صوب العمق، ليمسك السدود الفكرية التي شيدها النوبي داخل ذاته، وساهم المجتمع في غلقها و تعليتها من حين لآخر، يقول الطالب متوعدا للعالم " لابد بل من الضروري إنهاء أكاذيبه وبأسرع وسيلة، نعم نحن من عاداتنا احترام الغرباء وحمايتهم، ومن قيمنا الموروثة .. ألا نقتل أو نسرق وألا نزني ومع هذا كله فهذا الغريب المسمى كتبه لابد من قتله، فبرغم كل ما يزعمه، فهذه معابدنا لا يهم من بناها .. لكن اسمها معابد النوبة . وهذا نيلنا ينبع من الجنوب أو الغرب أو حتى من السماء، لكن يندفع إلينا ويتسكع فوق أرضنا: وهذه رطانتنا. قد تكون حروفها مجهولة، ولكنها في انتظار "شمبليون" آخر في وقت قادم[٣] وجاء

(١) قصة "النوبي"" والثقافة الجديدة ص٦
(٢) نفسه ص٥٩
(٣) نفسه صـ٦، ٥٩.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أمر التهجير ".. انتبهت لنفسي والباخرة ترسو أمام قريتنا " لتنقل الإنسان النوبي من زمان ومكان مغلق، وعادات ومفاهيم و أنماط سلوكية وعلاقات ومعتقدات متيبسة يقول الراوي عن العجوز " كنود" ما يبرز المفارقة بينه وبين العالم " قال لي جدي جاداً : لا تدعه يلمسك أو يركز بصره عليك، لا تدعه يحصل على خصلة من شعرك أو يلتقط منديلك لا تشرب أو تأكل عنده، كانوا يظنونه ممن يحسدون و يسحرون .. والغريب اندفع إليه، عانقه، جلس بجواره، تعارفا، تهامساً"[١] واكتشف الراوي نفسه أنهما من أصل نوبي و احد لم يختلط بالعرب ولا المماليك أو الأتراك، ومع ذلك في "الثقافة وفروعها منظومة مفتوحة pen system إذ أن الانغلاق يؤدي إلى العزلة فالانقراض، بيد أن المنظومة المفتوحة، لا تعني محو الثقافة القائمة، واستبدالها بثقافة وافده غازية، تدمر هوية أفراد هذا المجتمع أو ذاك، وإنما تعني المنظومة المفتوحة " الغربلة " المستمرة للثقافة، باستبعاد ما يعوق استمرارها بل و تقدمها "ويتضح من ذلك في موقف " كنود" العجوز، و"كتبه " العالم من صندوق كنداري " زوجة " كنود " ففكر كنود أنه "رائحة كنداري ورائحة جدودي، دقق يا عمدة في هذه الصورة حين يضيق بي الحال وتسحقني الوحدة، أتأملها فأرتاح، تغمرني السكينة، كل ليلة أغمض عيني عليها فلا تهاجمني الكوابيس .. تصدق يا عمدة ذات ليلة تسلل ذئب ودخل غرفتي هذه، رأيته والله وهو يحدق في الصورة ثم ينسحب في هدوء"[٢] أما كتبه وهو أنموذج للإنسان الحديث الساعي " للعمل الجاد والكفء والدؤوب المنطلق من معرفة ورؤية صائبة على التعامل المفيد مع

---

(١) "والثقافة الجديدة صـ٦.

(٢) نفسه صـ٦٣، ٦٤

هذا الواقع " فقد شد الصندوق "كتبه" و"أقعى بجواره واستخدم كشافاً كهربياً وعدسة مكبرة لقراءة النقوش .. هتف مستر كتبه : يا الله .. يا الله "(١)

وقد وظف الكاتب حادث التهجير ليهدم سور الماضي العظيم و ينذر أهله من الالتصاق به، والانقراض تحته، ودعاهم للاحتفاظ بقواهم وإمكاناتهم، ليبنوا أبراجاً جديدة فتتفتح أحداقهم على أرض وسماء العالم، شمس العالم الذي انفتح عليهم دون استئذان، نرى ذلك في ثلاثة أحداث أولها: سقوط صندوق كنداري" الذي طمع فيه الكثيرون وهو يرمز للاعتقادات الفجة في النوبة " سقط الصندوق من بين أيديهم، وهوى لأسفل محدثا دوياً هائلا: " واجوري .. واجوري " يا خسارة .. يا خسارة. تدحرج الصندوق وانتشروا يبحثون عن كنوز الملك سليمان وتاج رمسيس الذهبي وسيف عون الله، وكلما وجد أحدهم شيئا أمسكه و ألقي به ساخطاً : "وتجنيدي "يا للقرف لا شيء"(٢) الحدث الثاني:- هو فرح أخته الشابة بالهجرة فهي تعاني من الكد و العمل اليدوي في وهج الشمس "وتسب النهر والدنيا و تطلب من ربنا أن يأخذها لترتاح "وحينما علمت بأمر الهجرة غنت "علي بلد المحبوب ودينى" أما الحدث الثالث : وهو ربط الجد أهالي النوبة في البلاد الجديدة بجيرانهم الشماليين رغم رفضه مسبقاً لهم و استماتته في البقاء في النوبة وقت التهجير، " فقد امتدت جولاته لتشمل قري الصعيد المجاورة، رغم التعليمات المشددة بمنع الاختلاط لحين استقرار الأمور، زار نجع " فطيرة " وعاد بانطباع طيب : أهل نجع فطيره يا جماعة مثلنا تماماً، دينهم الإسلام وجدنا الكبير واحد وليسوا عصابات من القتلة و اللصوص كما

(١) الثقافة الجديدة ص٦٤

(٢) نفسه صـ٧،٦٧.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

تتصورون "[١] و"فسر الكاتب مراحل المعاناة و التحول التي أصابت الإنسان والمبدع النوبي بأنها " تداعيات صدمة المكان" فهو قادر علي البقاء وعلى التعامل الذكي و الأمثل و الأكثر مردودية مع الواقع وما حوله، وقادر على إيجاد هامش جيد لقيمه المضافة في ظل الواقع "[٢] والجد" كان موجوداً بقوة ورسوخ و شموخ وهو كما عرفه المعاصرون بسمرته وطيبته و سماحته، لقد بعد عن الجغرافيا .. ربما، لكنه، لكنني، لكننا، نقف عند حافة التاريخ محتفظين بتوازننا ".

(١) قصة "النوبي"" والثقافة الجديدة ص٧.

(٢) نفسه صـ٧،٦٧.

الخاتمة :-

المكان عنصر رئيس فاعل في تكوين طباع البشر وعوالمهم النفسية، وقلما استطاع مكان أن يستمر حيا مُجسَداً حاضرا ، في عين المبدع وقلبه وعلى قلمه وواقعه مثلما كانت النوبة، وقد حولتها أحداث التهجير إلى رمز للوجود وللإنسان النوبي، وصار ترابها ونيلها وجبالها وحروفها أساطير تَلقَفُ كل مُحدَث في حياة النوبي وتسيل على مداد قلمه. وانعكست على العناصر الثقافية والذهنية والتخييلية إلى جانب الواقعية، فانطلق الطائر الجريح متحررا من القوالب التقليدية الجاهزة في الكتابة، ليغاير الهياكل السائدة في الأجناس الأدبية، ويتنكر للأنماط المتعارف عليها في إنتاج النصوص ويكسر الحدود والقيود ويهدم سلطة الجنس الأدبي، ويبحث عن شكل أكثر قدرة على التعبير بحرية، فصار التحول النوعي في شكل القصة النوبية مستندا إلى خصوصيتهم يرون أنها متميزة ومتفردة بل هى "روح الحضارة وسر وجودها "فهُوية النوبي تحمل سمات مائزة شكلتها منظومة قيم ومعتقدات وأعراف وتقاليد وتاريخ زاخر بالبطولات والانتصارات والانكسارات، وجاءت يد الحاضر وقذفت بها إلى المهجر في الشمال فانكشفت تلك الخصوصية وأُسرت بين جبهتين جبهة الحاضر ومحدثاته ومدخلاته الثقافية وتراث راسخ متجذر في الفكر والشعور فاستعان المبدع بـ (الاسترجاع) لربط الماضي بالحاضر.

ولتأكيد الإحساس الإنساني العام للنوبي وللمصري بصفة عامة، بما حل بهذا الوطن من أحداث، فتغلغلت قضية الإنسان وارتباطه بالأرض وعلاقة الحب والعطاء المتبادلة بينهما، وما نتج عن تلك العلاقة من عزلة

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

لأهل النوبة في الماضي، وغربتهم ووحدتهم التي تواطأت مع الفقر والقهر والعوز على أرض الواقع، فضاق الخناق عليه فضاقت نفسه ، فتمرد على نفسه وعلى المجتمع وعلى القالب فتجاوز حدود القصة التي ترتكز إلى الحدث المباشر، وداعب الفنون الشعبية لتكون وليفة أعماله بل الركيزة الفريدة التي تمكنه من المزج بين أشكالها، من موال وأغنية وأمثال وأساطير وأفكار وعادات وتقاليد وإبداعاته، وكانت "الشمندورة "للمبدع "محمد خليل قاسم" فاتحة الكنز النوبي وباب الانطلاق نحو فضاء إبداعي نوبي، وهى أول رواية نوبية في الأدب العربي تناولت كارثة التهجير وتبعاتها على الأجيال التي عاصرتها والأجيال التالية. وأعقبتها أعمال روائية وقصصية كثيرة يحركها النيل بجفافه وفيضانه، بحنوه وجفاءه وزحفه على بيوتهم وقراهم وزروعهم، ثم تهجيرهم عنوة عنه وعن أرضهم فكانت نقطة التحول بل الانحراف الشعوري والفكري، إذ اضطر النوبيون إلى السفر إلى مدن مصر المختلفة بحثا عن الأمان ولقمة العيش فعملوا في مهن لا تحتاج مهارة أو شهادة، فتحملوا مشقة تلك الأعمال وورث آبائهم مذلتها، ومن الأعمال القصصية ما يمزج بين الماضي وما آلت إليه الأحوال في المدينة فيقول إبراهيم فهمي مثلا في قصة "بحر النيل " "أكلمهم طول الليل، فلا يكلموني، وحدي تطاردني وجوه الذين طردوني من الشوارع بين آخر الليل وأوله ..يمزقون من على الجدران صور "الحبايب" والمباخر والبروش"(١).

وسواء كان محور العمل القصصي النوبة قبل التهجير أو النوبيون بعد التهجير، كانت النوبة حاضرة بعاداتها وتقاليدها في الميلاد والختان والزواج والسفر وحفلات جني الثمار والرقص والموت والدفن، ونهر

النيل الذي كان يحاط بهالة من الغموض الأسطوري فكانوا يعتقدون أنه مسكون بمخلوقات طيبة وأخرى شريرة يسترضونها بالأطعمة" عودتني أمي في ليلة صباحية عرسنا أن أهبط إلى الهامول وألقي لناسه لقيمات من أشهر ما نأكله رمز للسلام الذي أريده أن يكون بيننا " "٢" أو الذبائح أو بإلقاء أُضحية بشرية متمثلة في فتاة جميلة كما ورد في رواية "كشر" لحجاج أدول. وتلك الأساطير وبعض العادات المتوارثة كتعميد الأطفال ورسم صليب على جبينهم، والاعتقاد بأن كل الشماليين هم الحكومة وأن المرأة الشمالية أفضل من النوبية، عرضها الكتاب في إبداعاتهم لتدلل على بعض المفاهيم الخاطئة المتعارف عليها في المجتمع النوبي. ورغم ذلك لم يبرأ الكتاب من هؤلاء الذين تنكروا للنوبة فهى أشبه بالجحيم وأهلها ممبوذون.

١- قصة "بحر النيل " من مجموعة "بحر النيل "إبراهيم فهمي ص الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩.

٢-حجاج حسن أدول رواية "الكشر" ص٣٧

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

المصادر :-

الأعمال القصصية لـ:

١-إبراهيم فهمي :

- رمش الصبايا. الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٤.
- القمربوبا.طبع الهيئة المصرية لقصور الثقافة ١٩٨٩.

٢-إدريس علي :-

- مجموعة "واحد ضد الجميع كتاب المواهب الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧ -
- قصة "في مجلة الثقافة الجديدة.الهيئة العامة لقصور الثقافة أكتوبر١٩٩٠- العدد ١٢١

٣-حجاج أدول :-

- غزلية القمر. الحضارة للنشر.ط١.مارس ١٩٩٦.
- ليالي المسك العتيقة -دار الكتب المصرية -الجيزة -دار بدائل للنشر ٢٠١٨

المجلات والدوريات :-

١-مجلة الثقافة الجديدة- الهيئة العامة لقصور الثقافة- أكتوبر ١٩٩٨- العدد١٢١.

٢-مجلة "علامات في النقد" مجلة المأثورات الشعبية س١٩، ع٧١، ""بحث" العجائبية في الحكاية الشعبية" أحمد زياد محبك

٣-عالم الفكر. المجلد السابع والعشرون. العدد الثالث يناير١٩٩٩.الكويت

٤-مجلة "الفنون الشعبية العددان ٩٨/٩٩سبتمبر٢٠١٤.مقال "الموال بين الشكل الأدبي والأداء الموسيقي محمد شبانه

٥-مجلة القاهرة العدد ١٩٧.،الأغنية الشعبية. د/أحمد مرسي.

٦-مجلة المجلة (أدب و نقد)العدد ٤٨- .١٩٨٩

٧-مجلة المأثورات الشعبية س١٩، ع٧١، ""بحث"العجائبية في الحكاية الشعبية" أحمد زياد محبك ٨-الأهرام، طارق حجي "العولمة ..أمر واقع" العدد ٤١.١. – ١٩ مارس ١٩٩٩.

المراجـــع :

١-البحث عن الشمندورة. سيد جمال – الفقرة المحمود أمين العالم الأمـل للطباعة النشر.

٢-كتاب العربي" تجارب في الإبداع العربي "مقال "تجربة في المكان "حسان بورقية. مطبعة الكويت ٢..٩

٣-الخرافة والأسطورة في بلاد النوبة إبراهيم شعراوي الهيئـة المصـرية العامة للكتاب ١٩٨٤.

٤-الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها.د/حسين مـؤنس. عالم المعرفة.ط٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥-دفاع عن الفلكلور. د/عبد الحميد يونس.الهيئة المصرية العامة للكتـاب ١٩٧٣.

٦-زمن الرواية.د /جابر عصفور /الهيئة المصرية للكتاب عام ١٩٩٩

٧- صفحات من تاريخ النوبة ترجمة دأحمد سوكارنو.مؤسسة ابن خلـدون للطباعة والنشر١٩٩٦عن روبرت فيرنيا "النوبيون المصـريون شـعب مسالم "

٨-الخرافة والأسطورة في بلاد النوبة، إبراهيم شعراوي الهيئة المصـرية العامة للكتاب ١٩٨٤

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

٩-المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار- تقى الدين المقريزي طبعة بولاق ٢٧. هـ جزء

١٠- مناهج النقد الأدبي إ مبرت أندرسون ترجمة د. الطاهر أحمد مكي. مكتبة الآداب ١٩٩١

١١-النقدالأدبي الحديث. محمد غنيمي هلال. دار العودة بيروت. ١٩٩٧ص١٢٩.

١٢-**مصدر إليكتروني** :

- محمد عبد السيد https:llwww.nawaret.com

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة
١.	ملخص البحث	١٢٦٩٧
٢.	Abstract	١٢٦٩٨
٣.	المقدمة	١٢٦٩٩
٤.	أشهر كتاب النوبة	١٢٧٠٥
٥.	البناء الفني للقصة النوبية	١٢٧٠٦
٦.	الصراع ومفرداته في القصة النوبية	١٢٧١١
٧.	الفولكلور والمجتمع والثقافة	١٢٧١٩
٨.	النوبة أسطورة من الأساطير	١٢٧٢١
٩.	قبائل الفاديدجا	١٢٧٢٣
١٠.	كانت نوبة	١٢٧٢٦
١١.	التراث العربي النوبي	١٢٧٢٩
١٢.	التراث الإسلامي والشعبي	١٢٧٣٦
١٣.	الأغنية الشعبية	١٢٧٣٧
١٤.	الخاتمة	١٢٧٤٧
١٥.	المصادر والمراجع	١٢٧٥٠
١٦.	فهرس الموضوعات	١٢٧٥٣

تم بحمد الله